جدد إيمانك في معاني الإيمان وأعمال القلب

خواطر مستخلصة من كتب الرقائق

د. طارق السويدان

يوزع مجاناً

جدد إيمانك في معاني الإيمان وأعمال القلب

تأليف : د.طارق السويدان

تصميم وإخراج : أسامة أسعد الفارس

@osama4graphic - osama4graphic@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

جميع الحقوق محفوظة للناشر (شركة الإبداع الفكري) (يمنع النسخ أو التصوير أو النقل أو النشر في موقع الشبكة الالكترونية أو الاقتباس من هذا الكتاب أو أي استخدام آخر لمادته إلا بإذن خطي من الناشر لعدم التعرض للملاحقة القانونية)

رقم الإيداع 0695-2021

ردمك : 978-9921-714-52-4

الإبداع الفكري

ebdaafekry

+965 97209021

ebdaafekry.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه، وجنده وحزبه، ومن دعا بدعوته، وجاهد بجهاده، واستنّ بسنته إلى يوم الدين.

اللهم لك الحمد حمداً كثيراً طيباً، مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى.

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك.

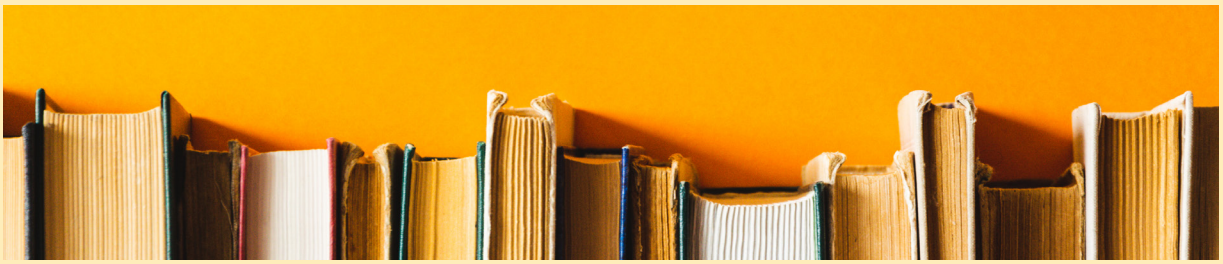

وبعد.

فهذه جمل في أعمال القلب، انتقيتها لي ولكم مما كتبته حجة الإسلام الإمام الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد ٤٥٠ - ٥٠٥ هـ. هو رجل إذا ذكر وكأنه رجال متعددون، ولكل واحد قدرته ومكانته، فهو:

١- الأصولي الحاذق الماهر.

٢- الفقيه الحر.

٣- المتكلم إمام السنة وحامي حماها.

٤- الاجتماعي الخبير بأحوال العالم، وخفيات الضمائر، ومكنونات القلوب.

٥- و العالم الذي ناهض الفلسفة، وكشف عما فيها من زخرف وزيف.

٦- الشيخ المربي.

٧- والصوفي الزاهد

هو دائرة معارف عصره، متعطش إلى معرفة كل شيء، نهم إلى جميع فروع المعرفة.

إحياء علوم الدين

يُعدّ هذا الكتاب القانونَ العام للمسلم التقي الصالح، حشد فيه الغزالي من أنواع الأخلاق والآداب ما جرى على ذاكرته ففسرها، وحللها، وحض عليها.

كما جرى في الأخلاق والآداب المنحطة السيئة، ففسرها وحللها، وحض على التباعد عنها.

فهو كتاب أخلاق وتربية، يمتاز في نوعه عن أمثاله من الكتب في رياضة القلب، ورياضة النفس، ولولا شيء من أحاديث ضعيفة، وبعض التجاوزات في قضايا متعلقة بالصوفية المبالغ فيها، التي تقتل في الإنسان شخصيته الإنسانية وتجعله يهيم في كلمات وهمية. لكان هذا الكتاب حجة للناس في التربية والأخلاق.

ولكنْ أما يقول:

ومنذا الذي ترضى سجاياه كلُّها كفى المرء نُبلاً أن تُعدَّ معايبُهْ

ولقيمة هذا الكتاب العظيم وأثره في اصلاح النفوس والقلوب وصناعة الشخصية الإسلامية المتوازنة؟ اخترت منه أبحاثاً سبعة:

١- المراقبة والمحاسبة ٢- الموت ٣- المحبة ٤- المعصية

٥- التوكل ٦- التقوى ٧- الدعاء

وأما الفصل الثامن (معركة مع الشيطان) فهو مأخوذ من كتاب الإمام العظيم ابن قيم الجوزية رحمه الله (إحياء علوم الدين).

قيل في كتاب إحياء علوم الدين: من لم يقرأ الإحياء، لا يُعدُّ من الأحياء.

استعراض هذه المعاني والأعمال في فصول ثمانية

الفصل الأول: المراقبة والمحاسبة

يستعرض: **معنى المراقبة ودرجات المحاسبة**

١- قبل العمل:

- التفكر عند الصباح
- حفظ الجوارح
- القيام الطاعات
- العزيمة والاستعداد
- نماذج وقدوات.

٢- أثناء العمل:

- معنى الإحسان
- معرفة مداخل الشيطان.
- تذكر ثلاثة أمور: العمل إيمانا بالله، واحتسابا لأجله، وموافقا للسنة
- نماذج وقدوات.

٣- بعد العمل:

- المحاسبة على كيفية الأداء
- الترتيب في الفرائض، النوافل
- عتاب النفس على التقصير
- التوبة.

استعراض هذه المعاني والأعمال في فصول ثمانية

الفصل الثاني: الدعاء.

- معنى الدعاء، وموجبات الدعاء (تجديد الصلة، قضاء الحاجات، الشعور بالرضا، الإقرار بالعبودية).
- إجابة الدعاء.
- كيفية الدعاء (بلا واسطة، وخفية بالسر، والتفكر فيه).
- شروط الدعاء (عدم الاستعجال، والدعاء بالمباح، والإلحاح، والتسليم، وأكل الحلال).
- من يستجاب له بسرعة (الوالد، والمظلوم، المسافر، الصائم).
- مواطن استجابة الدعاء
- الدعاء والقضاء.
- هيئة الداعي في جميع الأحوال.
- فوائد الدعاء (التواضع، والتوحيد، والحياء، ومخالفة الهوى).
- نماذج من الأدعية (من الآيات، ومن السنة، ومن الصحابة، ومن الصالحين).

استعراض هذه المعاني والأعمال في فصول ثمانية

الفصل الثالث: الموت

ويتحدث عن الموت وهو الأجل الموعود والأجل المسمى، في ذكره دائماً، والاستعداد، وترك التمني.

الفصل الرابع: محبة الله وعلاماتها

فيذكر:

- مقدمة عن الميل والفطرة وأنواع الحب، الميل والغرام والعشق والتيم والهوى.
- وعن أسباب الحب: الفطرة، الإحسان، الجمال، القوة، ومناسبة خفية.
- ثم علامات الحب: الخلوة، عدم الأسف لشيء من الدنيا، الشفقة على الأحباب، الخوف.
- وما ثمار المحبة؟: حب من يحب الحبيب، وكره العود إلى الكفر، ولذة الإيمان، والتوبة، والشوق إلى اللقاء.

الفصل الخامس: المعصية

- فيوجز أنواع الابتلاء، بسبب المعاصي (من أمراض، وموت القلوب، ومعيشة الضنك، وحرمان من النعم).
- وأصناف مرتكب المعاصي (من يفرح بها، ومن تُسيئه ومن يستاء منها).
- ثم الحديث عن السر والجهر في المعصية، وكيفية تحويل المعصية إلى طاعة، ثم الفرار إلى الله، والتوبة، و علامات التائب.

استعراض هذه المعاني والأعمال في فصول ثمانية

الفصل السادس: التوكل ومعانيه

وفيه الحديث حول:

- صفات المؤمنين المتوكلين.
- نماذج من التوكل: (الرسول ﷺ) والصحابة.
- الأسباب والأخذ بها (قطعية، أو ظنية) ومعنى الأخذ بالأسباب، والزهد، والادخار، ودفع الضرر، والصبر.
- شروط التوكل (الاطمئنان، والفصاحة في الوكيل، والإشفاق، وكمال القوة).
- سبب ضعف التوكل (الشك في القدرة، وضعف القلب، والاعتماد على السبب).
- نماذج قدوات من المتوكلين.

الفصل السابع: معنى التقوى

وبعد مقدمة حول (معنى التقوى) يتناول الفصل:

- آيات التقوى، ووصية الرسول ﷺ والصالحين.
- كيف تتحقق التقوى؟ (بالأعمال، وبترك الشبهات، وبالعبرة من الماضين).
- ثمرات التقوى في الآخرة (الجنة، ورضوان الله، والرحمة).
- ثمرات التقوى في الدنيا (الأخلاق الحسنة، والثناء الحسن، والقبول في الأرض، والعاقبة لها).
- تفاضل البشر بالتقوى.

استعراض هذه المعاني والأعمال في فصول ثمانية

الفصل الثامن: مع الشيطان

وفيه معركة المسلم مع الشيطان في ست جولات.

١- جولة على الكفر الكامل

حقيقة الإلحاد، الملحد والمشرك، مهمة الشيطان.

٢- جولة على البدع والانحراف

وشيء عن حقيقة التصوف، وانحراف بعض المتصوفين، ومعنى وحدة الوجود، الاستغاثة بغير الله والحفظ، موضوع الإجبار والاختيار، الولاء لغير الله.

٣- جولة على الكبائر

وحكم مرتكب الكبيرة، والصغيرة، وبيان كيفية الخلاص منها.

٤- جولة عن الصغائر

التساهل في التطبيق، طريقة الخلاص.

٥- الجولة الخامسة جولة الاستكثار من الحلال بالإسراف.

٦- الجولة السادسة: جولة ترك الأولويات، وتقديم العمل المفضول على الأفضل منه.

الفصل الأول

المراقبة والمحاسبة

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت، الذي لا يعزب عن علمه مقدار ذرة في السماوات أو في الأرض، تحركت أو سكنت، المحاسب على القليل والكثير من الأعمال وإن خفيت. المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت، المتفضلِ بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت.

يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت، وتنظر فيما قدمت وأخرت.

أهمية المحاسبة

إن المؤمن يستشعر معاني الآيات الكريمة:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء:٤٧).

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف:٤٩).

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المجادلة:٦).

﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٨١)

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ (البقرة: من الآية٢٣٥).

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ❖ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ❖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (الزلزلة:٨-٦).

والنفس المؤمنة تصدق بها، وتتيقن علم اليقين أن الله لن يترك شيئاً إلا أحضره يوم القيامة. ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران:٣٠)

أهمية المحاسبة

لا بد لصاحب هذه النفس أن يستعد، وأن يبذل الجهد لكي يقف أمام الله عز وجل بكتاب مشرّف، بكتاب مملوء بالحسنات فيرفع كتابه على الملأ مزهواً فيقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ﴾ (الحاقة: من الآية ١٩).

المحاسبة عند القدرة

أن يراقب الإنسان نفسه وهو قادر في عمره في الحياة الدنيا -والعمر كله قصير- متذكر عامل قبل أن يقول الله للمتذكر غير العامل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ (فاطر: من الآية٣٧)

من حاسب نفسه في الدنيا، خفّ في القيامة حسابه، وحسن منقلبه، ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته.

درجات المحاسبة

إن تدقيق الحساب في هذا العمر مع النفس للتجارة العظمى بالفردوس الأعلى أهمُّ من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا، وإن الحازم العاقل لا يغفل عن محاسبة نفسه في حركاتها وسكناتها وتفكيرها، وأعمالها ما دام فيها نَفَسٌ.

كل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة، بل أغلى من كل أعراض الدنيا إذ لا عوض يقابله.

ولأجل تسهيل المحاسبة جعلت لها ثلاث درجات:

أولاً - المحاسبة قبل العمل

وهي بمثابة التخطيط المبدئي لتمضية الوقت في يوم جديد.

١- هذا يوم جديد منحة ربانية للإنسان، وعطاء عظيم، فليتخيل عندما يموت أحدهم كم يتمنى لو يعود يوماً واحداً للحياة ليعمل صالحاً! يعوّض ما فاته، أو يزداد عملاً صالحاً.

فقل: منحني الله سبحانه هذا اليوم متفضلاً، وقد حرم منه آخرون كثيرون.

قال الحسن البصري: ما من يوم يطلع على ابن آدم إلا وهو ينادي: يا ابن آدم أنا يوم جديد، وعلى عملك شهيد، فاغتنمني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

فابدأ بدعاء النبي ﷺ: «الحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني وإليه النشور». (البخاري).

وتخيل أن النوم نوع من الموت، وهذه حياة جديدة بعد الموت أُعطيتها، فاعزم على اغتنام هذه الفرصة، وفكّر هل ستجعلها شهيدة لك أم عليك يوم القيامة؟

٢- هذه الفرصة هل تضيع؟ بإضاعتها في أشياء الضياع كاللهو واللعب والتلفاز والفضائيات الضائعات!

٣- هل ستستغل كل لحظة من هذه الفرصة إذا تخيلت أن هذه قد تكون آخر فرصة؟

عجباً أيضيع الوقت؟! ولو لم يكن للإنسان عمل، لو كان أحدهم جالساً فهناك أعمال ومكاسب لا تكلف جهداً ولا تطلب مشقة، إنما هي سهلة يسيرة.

فبدلاً من أن تكون جالساً في السيارة ساكناً تتفرج يمنة أو يسرة فاجعل هذه الفرصة لك واغتنمها لحظات بذكر أو تسبيح أو تفكّر أو أي توجه لعمل خير، وقد ورد في الحديث: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» (البخاري).

فاجعل تلك اللحظات لك لا عليك.

الاشتراط

فاشترط على نفسك أن تطيع الله عز وجل بأداء الفرائض، وليس هناك عمل أفضل من أدائها، في وقتها، في جماعة، خاشعاً لله رب العالمين، ورد في الحديث القدسي:

قال الله تعالى: «ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ من أداء ما افترضت عليه» (البخاري).

أدّها متفكراً متدبراً في الآيات التي تتلوها، في معانيها، كالتفكر في معنى العظيم إذ تكون راكعاً فتقول: سبحان ربي العظيم.

لا شيء يعدل الفرائض والواجبات بأدائها.

اشتراط على النفس أولاً:

عظمة الله تعالى

إذا عرفت النفس عظمة الله تعالى، وهي تتجلى في هذا الكون بما فيه من مجرّات، وبما فيه من نجوم، وبما فيه من أبعاد، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات:٤٧)

وكأن ما فيه فوق الخيال، فإن بعض النجوم التي نراها لا يصل نورها إلا بعد ملايين السنين.

هذا في السماء الدنيا! فما بالك بالسماوات الأخرى، وإن كل واحدة كحلقة في فلاة، أو خاتم في صحراء بالنسبة لما فوقها! وهي كلها ﴿مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (الزمر: من الآية ٦٧).

فتشترط على النفس كلها عندئذ أن تخضع للعظيم كلما فكرت في الركوع، فتقول عند ذلك:

سبحان ربي

سبحانه وتعالى علمك من العلوم ما لم تكن تعلمين، فسمعت من علوم الفلك والكون والآفاق، لتجعلي تلك العلوم سبيلاً إلى الخشية من الله الخالق العظيم، و: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر: من الآية٢٨). وهو الاشتراط العظيم على النفس، فإنها إن زكيت وصلحت كان كل عمل صادر عنها مزكىً.

قدر الحاجة

اشتراط على الأعضاء

ومن تلك الخشية تشترط على كل عضو من أعضائك، على جسدك كله، وهذا من السهل الذي لا يستغرق من وقتك إلا لحظات، ولكنه ذو مردود عظيم لك للمستقبل العاجل الدنيا، وللمستقبل الكامل الأبدي في الآخرة، فتشترط على عينيك شروطاً، وعلى أذنيك، وعلى لسانك، وعلى بطنك، وعلى فرجك، وعلى يديك، وعلى رجليك شروطاً، ولا تمل من ذلك كل يوم.

الاشتراط على العين

على العين أن لا تنشغل بفضول المشاهد، بل تفكر فيما تشاهده بنظرة ملؤها التفكير، ورؤية باعثة الخشية للخالق، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران:١٩١-١٩٠).

ويل لمن قرأ هذه الآيات ولم يتدبر! ولم يتفكر في دلالاتها! وعجب من عين تنظر إلى ملكوت الله، ثم لا تأمر صاحبها إلى التفكر والتدبر.

والعين منهية عن رؤية اللغو، وهي الرؤية العبثية التي لا يستفيد الرائي (الناظر) من الرؤية شيئاً يفيده، ويسمى لغو المشاهد. **ولذلك العين منهية عن رؤية اللغو.**

الكون يدعوك للتأمل ففكّر لتصل إلى الحقيقة.

قصة طريفة

بينما كان الإمام مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩ هـ) إمام أهل المدينة يدرس في مسجد النبي ﷺ إذ صرخ مناد عند باب المسجد: جاء الفيل. جاء الفيل.

ولم يكن أهل المدينة قد رأوا فيلاً، وهذه المرة الأولى يأتيهم الفيل!

فقام الطلاب الذين كانوا في حلقة الإمام مالك يركضون ليروا فيلاً.

لم يقم الإمام مالك طبعاً، ولم يقم شاب كان في الحلقة أيضاً، هو عبد الله بن وهب.

فالتفت إليه الإمام مالك وقال له: لمَ لمْ تذهب فتنظر إلى الفيل مثل أصحابك؟ اذهب فانظر!

فقال له: يا إمام: ما أتيت من مصر لأرى الفيل!

فصار بحق من بعد ذلك إمام مصر في الفقه المالكي، وله كتاب المجالسات دوّن فيها ما سمع من الإمام مالك في مجالسه، هكذا صاحب الهمة!

قد اشترط على عينيه فيما ينفعه من النظر - رحمه الله-.

نظرة حرام قد تردي صاحبها، فاحفظ بصرك.

اشتراط على اللسان

اللغو

اللغو هو الكلام الفارغ الذي لا معنى فيه، وليس فيه ما يفيد ديناً ولا دنيا.

وإن من صفة المؤمنين: ﴿هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: من الآية٣).

فإن المؤمن منهي عن اللغو في جوارحه وأعضائه، فاللسان منهي ويجب أن يعرض عنه. وفضول الكلام لا تنحصر، ومنها: حكاية المعاصي، ومجالس الخمر، ومواقف الفساق، وتنعم الأغنياء، وتجبر الملوك.

ما أعظم الآفات التي تأتي على الإنسان من اللسان، وقد ورد عن الرسول ﷺ يدل معاذ بن جبل رضي الله عنه ويقول له وقد أمسك بطرف لسانه: كف هذا عنك!

فقال معاذ رضي الله عنه : يا رسول الله، أنؤاخذ بما نقول؟

فقال: ثكلتك أمك يا ابن جبل! وهل يكب الناسَ في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟ (الترمذي).

وكأن معاذاً رضي الله عنه ظنّ أن الحساب مقصّر على الأعمال والأفعال فقط، فأجابه الرسول ﷺ بكلمة الاستغراب الشديد عند العرب: ثكلتك أمك.

فيشترط عليه هذا اليوم: ألا ينطق كلمة فيها انحراف عن العقيدة أو فحش أو بذاءة «وإن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه» (الطبراني والبيهقي)، ولو كانت الكلمة في مجاري المزاح أو المداعبة، فلا يكذب، ولا ينطق بغيبة أو نميمة، ويشترط بصورة مؤكدة على أن لا يسب أو يشتم أحداً حتى ولا أمواتاً ليؤذي به حياً، إذ ورد النهي الصريح على ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا أمواتاً لتؤذوا أحياءً» (النسائي).

وقد صار القيل والقال، والشتم أو السب أو اللعن من عادة كثير من الناس، فيسب أحدهم المجتمع والشعب، وكل من يذكر أمامه من الباعة والجيران، والكتاب والعمال بل قد يسب أهل صاحبه ووالديه، وهذا من أكبر الكبائر كما جاء في الحديث: «من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه، قالوا: يا رسول الله، كيف يسب الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب الآخر أباه» (البخاري ومسلم وأحمد).

وكذلك الكذب حتى قيل: الكذب ملح الرجال، مع أن المسلم ليس بطعان ولا بذيء ولا فاحش ولا متفحش.

ويشترط ألا يخوض في المراء والمجادلة والمزاح، والاستهزاء بالناس، وقد ذكر الغزالي رحمه الله عشرين آفة من آفات اللسان، وذكر في كل آفة كلاماً بسيطاً حسناً، وذكر علاج هذه الآفات.

إذا كنت في مجالس الناس فاحفظ لسانك، وحفظ اللسان مروءة، والاشتغال بذكر الله أولى.

الاشتراط على الأذن

وكذلك يشترط على أذنه أن لا تستمع إلى حرام وكل ما ورد في اشتراط اللسان ألا يتكلم به، فلا يحل للأذن أن تسمع، فيشترط على الأذن إذاً ألا تتهاون في السماع المحرم، ويشترط عليها أن تعرف حكم السماع أولاً، فقد يكون محرماً وهو لا يدري، ويثير في نفسه شهوات الدنيا المحرمة.

ومن الحرام: أغاني الفحش، والغيبة، والنميمة.

وكان السلف الصالح عندما يأتي أحد ليقول كلاماً يجرح فيه أحداً كان العالم يبادره قائلاً: لا أريد أن أسمع! لا تغير قلبي عليّ، أحب أن يبقى قلبي صافياً.

وقال عنهم بعض الناس: أدركنا السلفَ وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن سماع أعراض الناس!

الأذن قرينة العين تحتاج إلى ضبط، ومن ضبطها الاشتراط عليها.

الاشتراط على البطن

يشترط عليه ألا يدخله حرام، وألا يأكل حراماً وذلك في كلّ يوم يستيقظ من نومه، ويتوجه إلى عمله، فقد ورد في الحديث: «**كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به**». (الترمذي والنسائي).

لا تساهل

فلا تساهل في موضوع الطعام والشراب، ليتأكد المسلم مما يأكل أو يدخل جوفه، فإن مما يأتي من شراب قد يكون مزيجاً بكحول، أو حلويات قد تكون مزيجة بلحم خنزير، وبخاصة مما يقدم من بلاد غير المسلمين، أو أي طعام فيه شبهة.

نموذج لطيف

كان عند أبي بكر رضي الله عنه مولى (خادم)، فجاءه يوماً بحلوى، فأكل منها أبو بكر رضي الله عنه.

فقال الخادم: أتدري من أين جئت بهذه الحلوى؟

قال أبو بكر رضي الله عنه: لا.

فقال: كهانة تكهنتها في الجاهلية.

يقصد أنه لما كان في الجاهلية فقد كان يتظاهر بمعرفة الغيب، وذكر مرة لإنسان أنه سيحدث كذا وكذا، ثم جاءت الأيام، وتحقق ما قاله له (وكان بشارة له بإسلامه)، فجاءه هذا الإنسان بهذه الحلوى مكافأة له.

فما كان من أبي بكر رضي الله عنه إلا أن استقاء وبالغ في إخراج ما دخل بطنه، حتى تعجب الناس من حرصه رضي الله عنه على ذلك.

قالوا: إنما أكلتها وأنت لا تدري!

فقال: إن رسول الله ﷺ يقول: «كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به». (الترمذي والنسائي).

ولفظه في الترمذي: لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به.

(السحت: الحرام الخبيث من المكسب والطعام والشراب).

عظمة الله تعالى

يشترط ألا يأكل إلا قدر حاجته من الطعام ولا يشرب إلا حاجته، فقد ورد عن النبي ﷺ:

«حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، وإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»

(الترمذي).

الحرام من الطعام والشراب مانع لقبول الدعاء، فأطبْ مطعمك.

شهوة البطن

يشترط عليه ألا يقع في آفتها، فإن الشهوة من أعظم المهلكات، إذ تدعو إلى البطر بعد الشبع، فلذلك يقوم المسلم على ضبط تلك الشهوة، ولا يقدم على كل ما اشتهت نفسه أو بطنه، وكفى بالمرء إسرافاً أن يأكل كل ما يشتهيه.

رأى عمر رضي الله عنه رجلاً ذاهباً إلى السوق، سأله: إلى أين؟

قال: اشتهيت كذا، وأنا ذاهب لأشتريه.

قال: سبحان الله! أو كلما اشتهيت اشتريت؟!

وقد امتنع عمر رضي الله عنه مرة عن شرب ماء بارد بعسل، وقال: اعزلوا عني حسابها.

ولا سبيل على المسلم إلى إهمال نفسه في الشهوات المباحات واتباعها، ولكن يأخذها بقدر ويتمتع بها.

وإذا استطاع الإيثار لأهل الحاجة فلا يبخل:

ذكر عن أبي حازم - أحد الصالحين- أنه مرّ يوماً في السوق فرأى الفاكهة فاشتهاها، فقال لابنه: اشترِ لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة لعلنا نذهب إلى الفاكهة التي لا مقطوعة ولا ممنوعة.

فلما اشتراها، وأتى بها إليه، قال لنفسه: لقد خدعتني حتى نظرت واشتهيت، وغلبتني حتى اشتريت، والله لا ذقته. فبعث بها إلى يتامى من الفقراء.

فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس في الشهوات، وترك الملذات.

قال الشاعر (البوصيري):

وخالفِ النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصحَ فاتهم

فالنفس كالطفل إن ترضعه شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وراعِها وهي في الأعمال سائمة ... وإن هي استرعتِ المرعى فلا تَسم

كم حسنت لذةً للمرءِ قاتلةً ... من حيث لم يدرِ أن السُّم في الدَّسم

مخالفة النفس في شهواتها تحتاج إلى دقة.

الاشتراط على الفرج

كان من دعاء الرسول ﷺ: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى».

يشترط المسلم على الفرج أن لا يفعل محرماً، والحرام هو كل ما جاوز الحلال الذي حددته الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ❖ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ❖ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (المعارج:٣١-٢٩).

وقد سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل النار، فقال: الأجوفان، الفم والفرج.

فالخروج عن المباح هو خروج عن دائرة الحلال، واعتداء على حرمات الله، فيعرف كيف يصونه بغض البصر، وعدم الاختلاط، بذكر التقوى، والعفاف، ويعرف الاعتدال فلا يفرط في شهوته، ويبتعد عن كل ما يثير شهوة الفرج من الاستماع للأغاني الفاحشة والمحرمة، والاجتماع بما هو محرم.

حفظ ما بين الفكين وما بين الساقين ضمان لدخول الجنة.

الاشتراط على اليد

يشترط عليها ألا تقدم على حرام.

- فلا يبطش بها ولا يمدها في فورة غضب على زوجته، أو ولده، أو خادمه.

- فلا تمدّ إلى حرام ليأكل صاحبها أو يشرب أو يلبس.

- ولا يلمس غير محرم بشهوة، ومسّ غير المحرم بلاء عظيم، وقد تساهل كثير من الناس في زماننا بقضايا الاختلاط والتلامس، والرسول ﷺ ما مست يده يد امرأة لا تحل له، قالت عائشة رضي الله عنها: «لا والله، ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط». (البخاري ومسلم والترمذي).

كسب أي شيء يضاف إلى اليد، فلتكن يدك تحت تصرفك في كل أمر خير لك لا عليك.

الاشتراط على الرِّجل

أن لا تذهب بها إلى مكان لا يرضي الله ورسوله، أو كل مكان يعصى الله ورسوله فيه، كحمامات السباحة المختلطة، أو دور السينما التي تعرض المشاهد المحرمة، أو النوادي الليلية وما أشبهها، أو مرافقة من يفعل ذلك ويمضي إلى الأماكن الموبوءة.

قال الشاعر:

قدِّر لرجلك قبل الخطو منزلَها ... فمن علا زلقاً على غِرّة زلجا

ويشترط على الرجلين أن لا تمشيا إلا بالمشية المعتدلة القاصدة لهدف خيّر، كما قال تعالى في وصايا لقمان لابنه: (واقصد في مشيك)، لذلك تبتعد عن مشية المختال المتكبر التي يكرهها الله ويمقتها البشر.

المشية المعتدلة لهدف هي المقبولة.

الاشتراط على النية

● المؤمن يشترط على نيته أن تحقق غاية الخلق الإنساني

ربنا سبحانه وتعالى يبين غاية خلق الإنسان والوجود كله بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)

فإذا فكر الإنسان في هذا الأمر، ثم شرط على أعضائه ما تقدم، فيكون هو الإنسان الذي يستفيد حتماً من فرصة العمر، ومن الحياة.

ويعلم أن الوقت أغلى شيء في الحياة، ويعلم أن الدقائق والثواني تمرّ عليه فعليه أن يكسبها كما قال الشاعر أحمد شوقي.

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

ويعلم عند ذلك أن كل شيء يمكن أن يعوّض إلا الوقت، وأنه ما خلقه الله سبحانه إلا للطاعة والعبادة، وكل عمل يقوم به المسلم في حلال أو مباح طاعة.

غاية الخلق عبادة الله، وأسمى صفة للإنسان أن يكون عبداً لخالقه.

الإنسان الضائع

يقول عنه سبحانه: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى ❖ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ❖ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾(القيامة:٣٣-٣١)

هكذا يضيع العمر بضياع الوقت، وذلك الإنسان يقال عنه باللغة الدارجة بين الناس: يمشي على راحته.

ولذلك سيكون في موضع يوم القيامة يقال عنه:

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ❖ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (الانشقاق:-١٣ ١٤). أي أنه يظن أن لا حساب عليه، هذه هي الدنيا فقط، فلا حساب، ولا شيء!

من ينسَ أمر ربه في الدنيا يُنسَ في الآخرة في عذاب شديد.

النية الصالحة في كل شيء

صاحب الطموح يفكر في شروط نفسه، فيرتفع بالطموحات، ولا يطلب إلا معالي الأمور ويحول كل حياته إلى طاعة.

فالصلاة والقرآن طاعة.

وصلة الأرحام والأصحاب طاعة.

وقضاء حاجات الناس طاعة.

والدراسة والعمل الحلال طاعة.

وإتقان الموظف عمله طاعة.

وكل ذلك بشرط النية الصالحة.

التاجر الرابح يربح كل دقيقة، ويستغل كل ثانية، وما ذاك إلا للمؤمن فحياته تمضي على اشتراط للأعضاء.

الحلال بالنية يصبح طاعة

ولا أقصد أن تكون حياة المسلم جامدة لا ضحك، لا لعب، ولا بَسط (سرور)، وإنما كما كان الصالحون يقولون: إنا لنقوى بشيء من اللعب على طاعة الله، فقد مُدح الإمام أحمد بن حنبل بأن له في كل شيء نية، وقد ورد ما يدعو المسلم أن يجعل كل شيء في صالحه من الطاعة: وإن لفي بُضع أحدكم (شهوته) صدقة. قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر. (مسلم).

النية الطيبة تجعل الزمان عبادة تكسبه، وتحول الحياة إلى خير في صفحات المسلم.

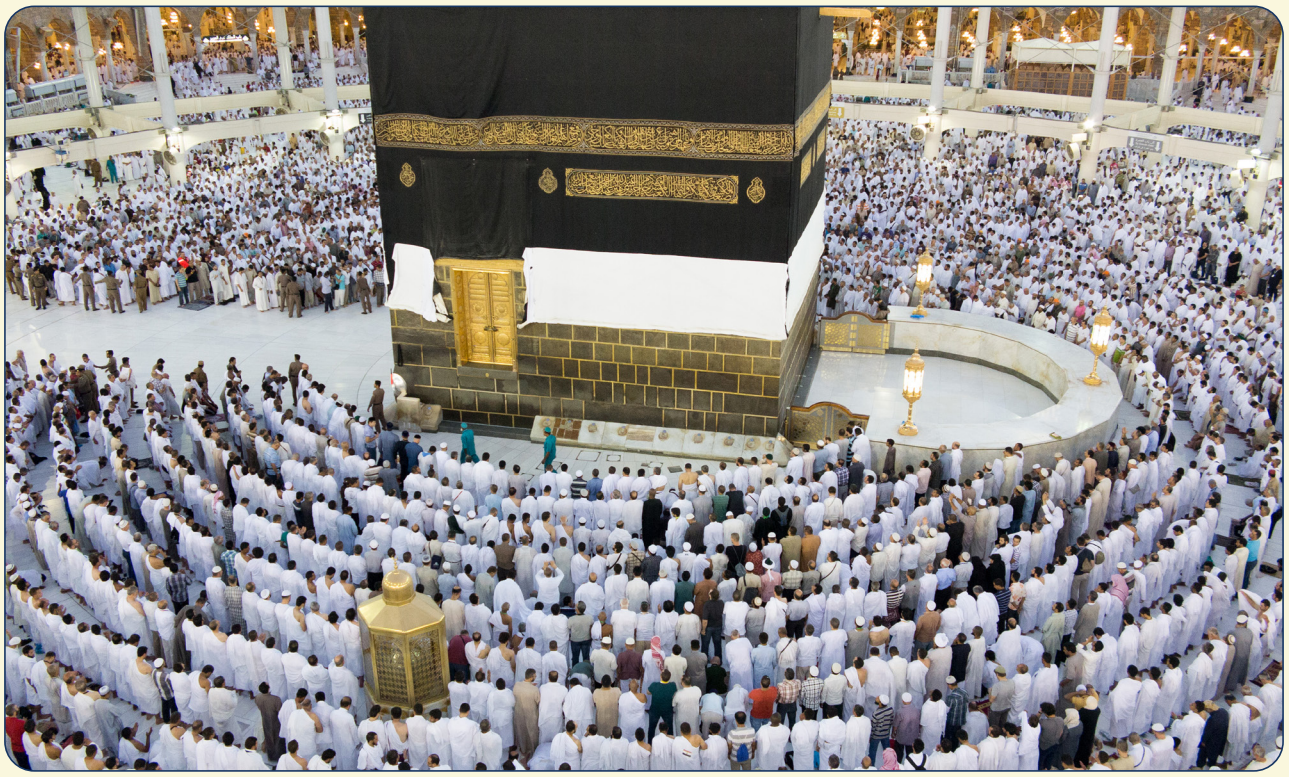

تحويل المباح إلى عبادة

إن النية الطيبة لكل عمل حلال تجعله عبادة.

أعمال لعب الكرة، والتعفف بالشهوة، والنوم، وتناول الطعام، والاستراحة وأمثالها، يمكن أن يحولها المسلم إلى طاعة، فلنفترض أن إنساناً نوى أن يقوم الليل قبل نومه، أو نوى بنومه قوة ليستيقظ لأداء صلاة الفجر، ولكن فاته لأمرٍ ما فلم يقم، أو استغرق في النوم، فإن عمله هذا يسجل له لحديث الرسول ﷺ: «يقول الله عز وجل: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر». (البخاري ومسلم والترمذي).

العزيمة الصادقة

كن ذا عزيمة ولا تعجز، حين تستيقظ في الصباح، فاشترط لنفسك بما سبق أو أفضل منه، وقل إذا عملت حسناً: عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً بحيث يكون كل يوم أفضل من اليوم الذي مضى.

ولا تدع للشيطان فرصة يضحك عليك فيها حين تفقد وقتاً يمكن أن تكسب حسنات فيه فترفع درجاتك في الملأ الأعلى.

قال الشاعر:

إذا كنت رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا

نويت. فبادر. والعزيمة صفة الرجولة الحقة.

ثانياً: المراقبة عند العمل

إن التفكير في كلمة الإحسان من حديث رسول الله ﷺ عندما جاءه الملك جبريل عليه السلام فسأله: ما الإحسان؟ قال:

أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. (البخاري ومسلم).

هذا المعنى هو المراقبة أثناء العمل، فشعور المصلي أنه واقف بين يدي ربه خاشعاً، وبمثله في كل عمل، وفي كل موقف، وفي كل حركة، وفي كل سكون، تلك هي المراقبة.

فالله سبحانه قائم على تصرفات العبد، ﴿فَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الرعد: من الآية٣٣).

فلم لا يلاحظ الإنسان هذا المعنى؟ فإذا لاحظ بدقة فأقام نفسه يراقب الله لا يغيب عنه، ولا يغفل عنه خالقه، مستشعراً قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (العلق:١٤).

إحساس وجود رقيب يجعل العامل يؤدي عمله كما يحب صاحبه.

السميع البصير

سأل رجل الإمام عبد الله بن المبارك عن معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ❖ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ (المعارج:٣٣-٣٢)؟

قال: كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل.

هذه هي روعة المراقبة، وإن أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات، كما قال أحد العلماء (ابن عطاء)، وهو يعني أن أفضل عمل هو المراقبة الدائمة لله سبحانه.

شعور عظيم

ليست المراقبة هيّنة، فشعور المرء بها في كل لحظة طاعة عظيمة، إذ بها تستقيم الطاعات، وتؤدى على الوجه الأكمل، ويحترز من الوقوع في السيئات، فالله سبحانه يقول: ﴿بَلِ الْأِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة:١٤)

درس بليغ

كان أحد العلماء يعلّم الذين يحضرون دروسه معنى المراقبة ومعانيها، وكان يهتم بشاب في درسه أكثر من اهتمامه بباقي التلاميذ، فأبدوا امتعاضهم من ذلك، فأراد أن يعرّفهم سر اهتمامه، فأعطى كل واحد

طيراً قائلاً: اذهبوا واذبحوا هذا الطير حيث لا يراكم أحد!

فلما كان الغد وجاء التلاميذ وكل منهم قد ذبح طيره، إلا هذا الشاب!

فسأله العالم الشيخ أمام الحضور: لمَ لمْ تذبح أنت طيرك ؟

فقال: لم أجد مكاناً لا يراني فيه أحد! فإن الله يراني حيث كنت.

فهذا الفهم لقدرة البصير السميع سبحانه هي التي تحقق معنى المراقبة أثناء العمل.

إن لم تُراقِبْ فراقِبْ من يُراقبْ، إن أنت لم تراقب نفسَك في العمل فراقبِ الله الذي يراقبُك.

شعور القرب

إن معنى المراقبة ليجعل في القلب شعوراً بقرب الله منه، وأنه سبحانه مطلع على عمله.

قال محمد بن علي الترمذي:

اجعل مراقبتك لمن لا تغيب أنت عن نظره إليك.

واجعل شكرك لمن لا تنقطع نِعمه عليك.

واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه.

واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.

كل الملوك تستطيع أن تهرب منهم إلى مكان آخر، تفر من ملكهم وسلطانهم إلى مُلك آخر، إلا ملك الملوك سبحانه، ولذلك يستحق الخضوع الكامل.

وقد سئل المحاسبي رحمه الله عن معنى المراقبة؟ فقال: علم القلب بقرب الله تعالى.

الخلوة

قال أحد الشعراء:

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقلْ خلوتُ، ولكن قل: عليَّ رقيب

ولا تحسبن اللهَ يغفل ساعة ولا أنّ ما تُخفيه عنه يغيب

قال (فرقد السنجي): إن المنافق ينظر، فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء، وإنما يراقب الناس، ولا يراقب الله سبحانه.

فلا يجترئ أحد على علام الغيوب، فليحرص كل مسلم على أن لا يخطئ في مراقبة الله سبحانه، فإن ارتكب المعصية وهو يعلم أن الله يراه، فقد اجترأ على الخالق، وفيه نوع من التحدي على الجبار.

وإن ارتكبها وهو يظن أن الله لا يراه فقد كفر بالله الذي لا تخفى عليه خافية.

لا يكن أحدكم مجترئاً على الله أو كافراً به في خلوته أو غيرها.

فأين الله؟

قال عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب ﷺ إلى مكة، وفي بعض المسير نزل راعٍ من جبل بأغنام، فقال له عمر: بعني شاة من هذه الغنم.

قال: إني عبد، وهذه ليست لي.

فقال: قل لسيدك أكلها الذئب - يريد أن يختبره-

قال: وأين الله؟

قال ابن دينار: فبكى عمر، وذهب إلى صاحب العبد فاشتراه منه، وحرره، ثم قال له:

أعتقتك هذه الكلمة في الدنيا، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

مداخل الشيطان

واحذر أيها الأخ العامل من مداخل الشيطان أثناء عملك، فإن من مداخله أن يوسوس في النفس حتى يذهب ثواب الطاعة.

يأتي للمصلي - مثلاً-: اخشع وأظهر خشوعك حتى يقول الناس عنك: إنك خاشع.

أو يقول له: لا تخشع لأن الخشوع هذا رياء. ويتفنن في مثل هذه الوساوس الهائلة.

يحذر مَنْ يعرف مداخلَ الشيطان من أن يوقع به مدخلاً يحرمه من الثواب.

النجاة من الشيطان

تكون النجاة بأن يقول الرجل للشيطان: خسأت يا عدو الله، إني أعمل خاشعاً لله، أرجو ثوابه، وأحذر عقابه وحده، أؤديه على الوجه الذي شرعه الله، وإني أعرف أنك عدوي، وقد اتخذتك عدواً، كما قال ربنا: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر: من الآية٦).

وتكون النجاة بالعلم أيضاً، لأن الذي يعبد الله حق العبادة، هو العالم الذي يعمل بعلمه، و ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: من الآية٢٨).

وإن عالماً واحداً أشد على الشيطان من ألف عابد، فقد ينحرف العابد بوسوسة الشيطان، فيُدخله متاهات وهو يظن أنه على صواب، فكم من عابد على عبادات عظيمة صعبة، ولكن على مدخل منحرف وهو لا يدري!

وخالف الشيطان واستعذ بالله من شره

تذكر ثلاثاً

تذكر أيها المسلم حين تؤدي أية طاعة، أو عمل مباح، أو حلال، أموراً ثلاثة ليكون مقبولاً عند الله.

١- أن تفعله إيماناً بالله وابتغاء مرضاته سبحانه.

٢- وأن تعمل به احتساباً حيث وعدك الله بالأجر عليه، وأمدك بالقوة لأدائه.

٣- وأن يكون العمل وفقَ السنة، على الوصف الذي وُصفت الأعمال به، لأن كل عمل ليس فيه اتباع لهديه ﷺ غير مقبول، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». (مسلم).

ولا تنس في هذه الذكرى وصف الخوارج في أعمالهم وقد وصفهم الرسول ﷺ قائلاً: «يحتقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم».

- أي أنه إن قورن صلاة أحدكم بصلاتهم لرأى عمله قليلاً، وصيامه مثل ذلك-

لكنهم يمرقون كما يمرق السهم من الرمية.

فإن أعمالهم هذه غير مقبولة، لأنهم يخرجون من الدين مثل السهم المار بسرعة لانحرافهم عن منهج السنة، منهج الرسول ﷺ.

لا يقبل الله من الأعمال إلا ما كان خالصاً طيباً.

ثالثاً: المحاسبة بعد العمل

يقول الغزالي -رحمه الله-: ينبغي أن يكون للعبد ساعة في آخر النهار، يطالب فيها النفس، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها.

فإنه كما اشترط على جوارحه أول النهار، فيأتي في آخره يحاسبها، فيسألها كيف كان أداؤه؟ هل شتمت أحداً؟ هل هجرت صاحباً؟ هل خشعت في الصلاة؟ هل أنقصت منها؟ هل وصلت رحمك؟ هل. وهل. وهل؟ أي يحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها.

فإن أهل الدنيا من باعة وعمال، وأصحاب أعمال يحاسبون أعمالهم وحساباتهم ليعرفوا مصاريفهم، ودخلهم، وربحهم.

هذا في شأن الدرهم والدينار، والذي نتحدث عنه في هذه الأعمال أعظم من الدرهم والدينار.

من حاسب نفسه عرف ربحها أو خسارتها.

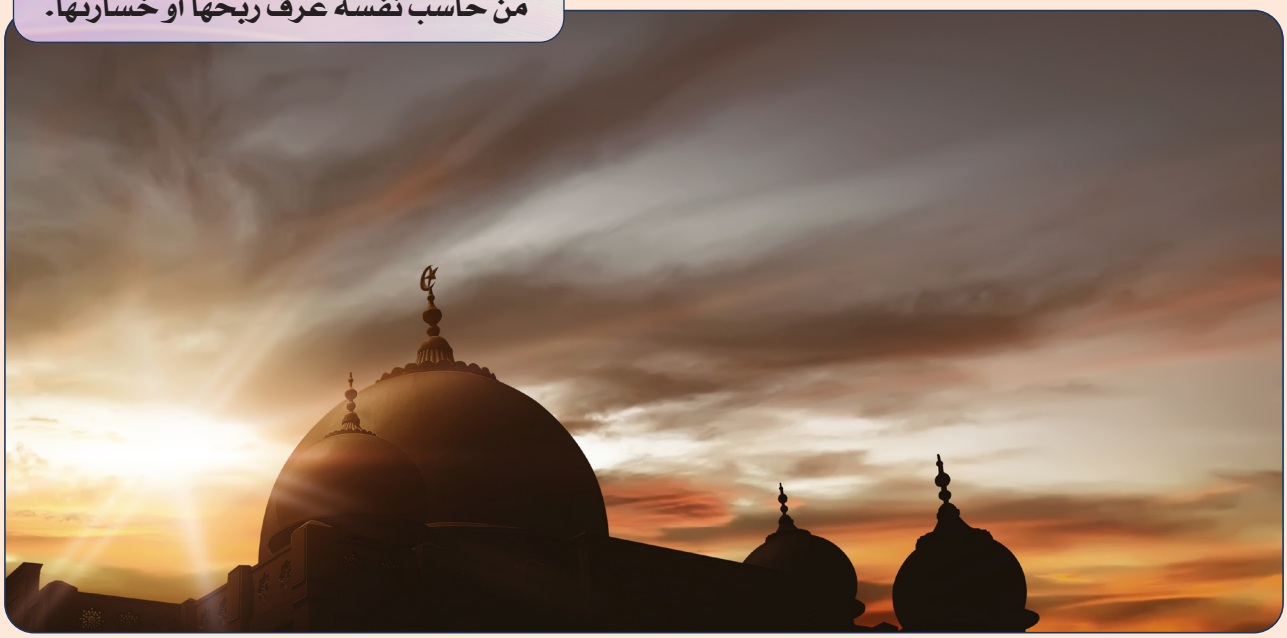

رأس مال العبد

يقول الغزالي -رحمه الله-: رأس مال العبد في دينه الفرائض.

وربحه النوافل والفضائل.

وخسارته المعاصي.

وموسم تجارته هذه النهارُ.

لكل شيء ثمنه، فابدأ بالغالي النفيس.

كيف يحاسب؟

يحاسب الإنسان نفسه آخر النهار على الفرائض أولاً، فإن كان قد أداها على وجهها ليشكر الله سبحانه وتعالى، ويعزم على أدائها بأفضل مما كان. في الغد إن أمدّ الله له في عمره.

ثم يحاسب على النوافل ويعاتب إن قصّر فيها ويستعد على أدائها.

أما عن النهار فيسأل نفسه: ماذا عملت؟ هل أضعت من الوقتِ شيئاً؟ وهل قصّرتِ؟ ويعزم عليها أن تعوض ما فاتها، بالذكر، أو الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر.

أما إذا ارتكبت معصية! فيسألها معاتباً إياها:

لم نظرت إلى محرم؟ لم ذهبت إلى مكان فاسد؟ لم قصرت في أداء فرض أو واجب؟ لم اخترت خبيثاً؟

ولا يكفي مجرد السؤال، بل يعاقبها! وكيف؟

المحاسبة: هي السؤال ثم معرفة الجواب، ثم النتيجة أفي رضاء الله أم في غضبه.

العقاب

ليست المعاقبة بتعذيب الجسد، فليس من السنة أن تعاقب النفسُ بالعذاب! فليس من شرعنا تعذيب النفس، فما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة رضوان الله عليهم.

بل يعاقب الذي ارتكب معصية نفسه بأن يحمّلها على الاجتهاد في الطاعة، فكما استلذّتْ بالمعصية، فلتشتدّ بالطاعة، فإن نام سبع ساعات مثلاً، فليجعلها تنام خمساً، فيقصر من راحة النفس ويعوضها بالطاعة.

عقاب النفس على المعاصي يكون بحملها على فعل الحسنات.

يقول الرسول ﷺ: «وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها». (الترمذي).

والمقصود هنا بالسيئة: الصغائرُ، كالنظرة الخاطئة، والكلمة الخاطئة، والتصرف الخاطئ، وسواها من المعاصي غير الكبائر.

خمسة تعين على الصلاح

١- أتبع السيئة الحسنة تمحها

فيذهب الذي ارتكب المعاصي إلى المسجد، فيصلي جماعة مثلاً، أو يستغفر الله مراتٍ ومراتٍ، أو يتوضأ فيحسن الوضوء، أو يسعى في حاجة محتاج أو يتيم، أو في سبل الخير.

وقد ورد في السنة ما يدل على ذلك حيث جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسّها، وأنا هنا، فاقض فيّ ما شئت، (أي أنه قبّلها) فأعرض رسول الله ﷺ عنه حتى أقيمت صلاة العصر، فلما فرغ منها، نزل جبريل عليه السلام بالآية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود:١١٤) (القرطبي في تفسير الآية).

فدعاه النبي ﷺ وقال له: أشهدت معنا الصلاة؟ قال: نعم.

قال: اذهب فإنها كفارة لما فعلت!

فقال أصحابه: يا رسول الله! ألهذا خاصة أم للناس عامة؟

فقال: بل للناس عامة. (الترمذي).

وقال عليه الصلاة والسلام: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، كفارات لما بينهن ما لم تغش الكبائر.

ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر. (مسلم والترمذي).

وقال رسول الله ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». (البخاري ومسلم والموطأ والترمذي والنسائي).

الحسنة تزيل السيئة، فلا تتراكم، بل تزال بها، وهذا العمل دأب المسلم النظيف الطيب.

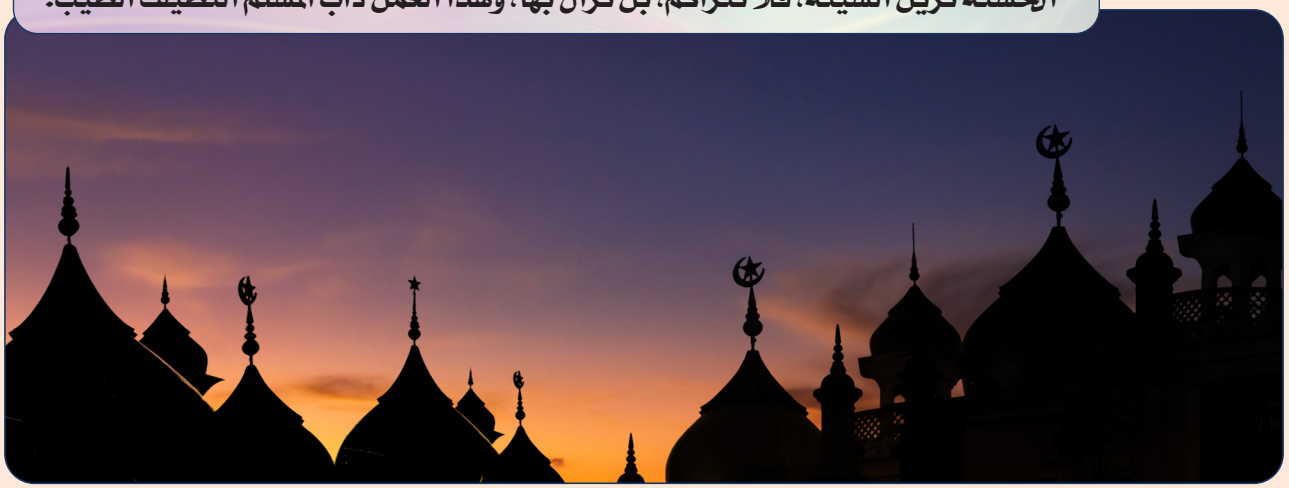

٢- التوبة: العلاج الناصع

يوجه العاصي نفسه بالطاعات، فيلزمها بالكثرة والإتيان، ولكن أعظم توجيه للنفس هو إلزامها بالتوبة.

شروط التوبة

١- الندم، وهو شدة التألم، المنبعث من القلب، إذ يسأل النفس: كيف فرطت في جنب الله؟ لمَ لمْ تراقب الله؟ لم تخشى الناس ولا تخشى الله؟

٢- الاستغفار، وليس مجرد قول لسان: أستغفر الله، وإنما بقلب خاشع متألم صادق لله رب العالمين، بالاستغفار المنبعث بحرارة الندم.

٣- العزم على عدم العودة إلى ذلك الذنب بصدق، وليس أن يعزم على عمل صالح يمهد لاقتراف معصية كما تحدث نفسه له: اعمل معصية ثم تتوبُ.

٤- إن كانت المسألة متعلقة بحق العباد كأن سرق مثلاً، أو شهد زوراً، أو ظلم أحداً، فعليه أن يعيد الحق إلى أهله، أو أن يستحل من صاحبه.

تحويل المعصية إلى حسنة

إذا جاءت التوبة الصادقة قد تتبدل السيئات إلى حسنات كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الفرقان:٧٠)

ما أرحم ربنا! من فضلة وكرمه وجُوده، يبدّل السيئة حسنةً.

٣- المجاهدة

ونختم فصل المراقبة والمحاسبة بالمجاهدة، فليس الأمر أن يسمع الإنسان موعظة يتأثر بها آنياً ثم يعود إلى دنياه وينسى! ولكن عليه بالمجاهدة للالتزام بالطاعات والبعد عن المعاصي، فما سبيل ذلك؟

قالوا: بالمجاهدة، ومن وسائلها التزامُ حضور مجالس التذكر، ومجالس المواعظ التي ترقق القلوب.

ولا تنشغل أيها المسلم على عمل مستمر دون تحريك القلب بالمعاني الإيمانية حتى لو كان انشغالك بالعلم الشرعي كالفقه والأصول، بل ارجع إلى علوم الدين، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾(الحديد: من الآية١٦).

فيسأل المرء نفسه أما آن أن تعودي إلى الخشوع والذكر، أما يكفيك الانشغال بالدنيا؟!

حتى: ﴿وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ (الحديد: من الآية١٦)، إذ مرت عليهم فترات طويلة دون أن يذكر أحد أحداً، أو يذكر أحدهم نفسه، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحديد: من الآية١٦).

فأصبحت القلوب بعيدة عن الذكر والتفكر، بل أصبحت أشد قسوة من الحجارة، ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (البقرة: من الآية٧٤).

تلاوة القرآن بتدبر، ومجالس الموعظة. محطات تجديد لوقود النفس.

فعلى الإنسان ألا يترك نفسه نهباً لفترات طويلة للدنيا وأعمالها، بعيدة عن الذكر، ولا بد أن يرجع من فترة إلى أخرى يسمع حديثاً، أو يسمع وصية، أو يطلع إلى آية متدبراً.

من أحاديث رسول الله ﷺ

❖ في قيام الليل

من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين، ومن قام بمئة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين. (أبو داود).

والمقنطر: الذي أعطي قنطاراً من الأجر، وقد ورد: أن القنطار ألف ومائة أوقية، والأوقية خير ما بين السماء والأرض.

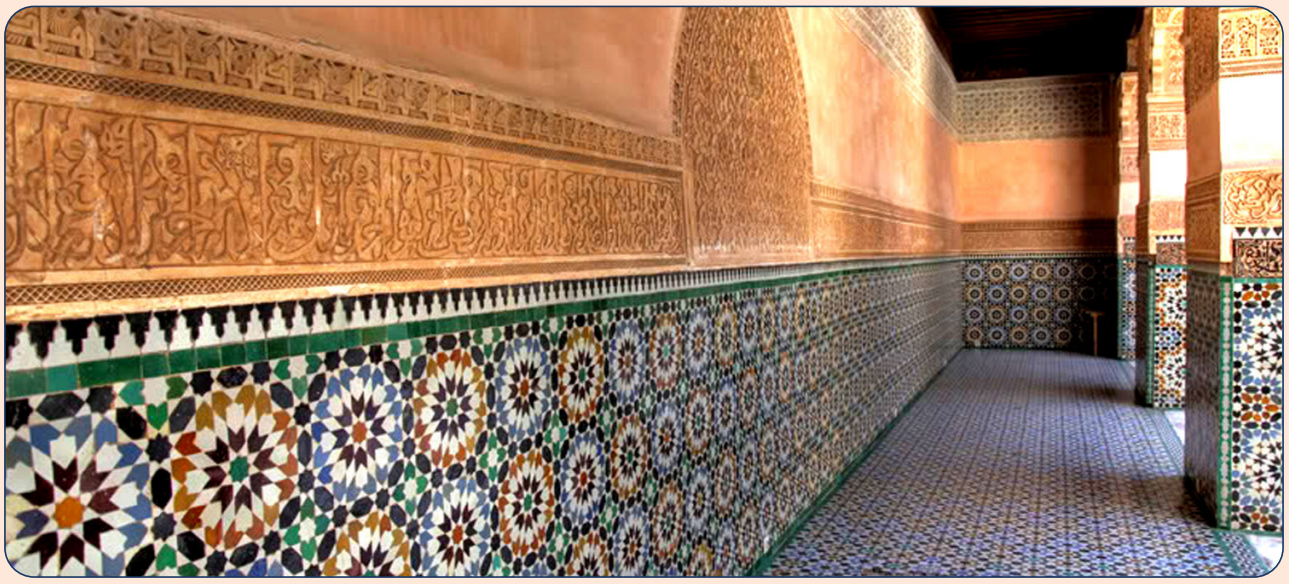

٤ - مجالسة الصالحين

يُعرف الإنسان بصاحبه، والصالحون كثر، فجالس وصاحب صالحاً كما جاء في الحديث: «مثل جليس الصالح، كمثل صاحب المسك، إن لم يصبك منه شيء، أصابك من ريحه، ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير، إن لم يصبك منه من سواده، أصابك من دخانه». (أبو داود).

صاحبْ أيها المسلم من ينهضُك حالُه، ويدلّك على الله مقالُه، قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسلْ عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقد قيل: قل لي من تصاحب أقل لك: من أنت.

وإياك أن تنظر إلى من حولك فتقول: أنا أفضل من هذا وذاك. فأنت مطالب بالاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ثم بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: من الآية٢١).

وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: من الآية١٠٠)

مصاحبة الصالحين أو مجالستهم تدفع الإنسان (رجلاً كان أم امرأة) للطاعة، فإن فيهم قدوات أحياء وأمواتاً.

٥- معاتبة النفس

يلوم الرجل نفسه حتى تصبح النفس لوامةً بالمراقبة والمحاسبة، وتحاول أن تتخطى تلك المرتبة التي أقسم الله بها مقترنة بقسمه اليوم الآخر، قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ❖ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة:٢-١)

فإنك إن فعلت العتاب حظيت بها، ثم ترتقي النفس إلى مرتبة النفس المطمئنة التي خاطبها الله سبحانه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ❖ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ❖ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر:٣٠-٢٨).

لُمها، وقل لها بصوت عال:

لم النسيان؟

لم تنشغلين بالدنيا وتنسين الآخرة؟ ما هذه الشهوات التي تشغلك؟

وقد قال الشاعر:

وساعةُ الذكر في علمٍ ثروةٌ وغنىً وساعة اللهو إفلاسٌ وفاقاتُ

لم نسيان الجنة التي عرضها السموات والأرض؟

لم تنسين نعيم الجنة وأنهارها، وقصورها، وحسانها، مع أن الحورية:

تزداد حسناً كلما نُظرتْ أوَ هلْ يملّ من الرؤى طرف؟

لم تنسين؟ ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

لم نسيان النار؟ وأهوالها، وطعامها وشرابها لداخليها، لم تنسين أيتها النفس حديث المصطفى ﷺ؟ «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامهم؟» (الترمذي).

والزقوم: هو ما وصفه الله سبحانه في كتابه العزيز، فقال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۞ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (الصافات:٦٥-٦٤).

وكيف تنسين حديث الرسول ﷺ: «لو أن دلواً من غسّاق يُهراق في الدنيا لأنتَن أهلُ الدنيا». (الترمذي).

والغسّاق: ما يسيل من غُسالة أهل النار.

لم نسيان الموت؟ وكل شيء يمكن أن ينسى الا الموت! لأنه حاضر قريب، أقرب من حبل الوريد، تقرئين على الصفحات، وعلى الجدران، وتسمعين أخبار الوفيات كل لحظة.

فلا تغفلي أيتها النفس، وصلي صلاة مودع! وكيف تكون صلاة مودع؟ أظنها بمنتهى الخشوع والإقبال على الله.

حين يفكر المصلي هل سيصلي الصلاة التالية؟ أم لا؟

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء (البخاري).

أعود للمعاصي دوماً

جاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم - رحمه الله-

فقال: أفتأ أعصي الله، أي: أرجع إلى المعاصي بعد التوبة.

قال: أمرك هين وبسيط.

قال: كيف؟ دلني يرحمك الله!

قال: إذا أردت أن تعصي الله، فاعصه في مكان لا يراك فيه.

قال: سبحان الله! وهل من مكان لا يراني فيه الله؟!

قال: سبحان الله، تعلم أنه ما من مكان لا يراك فيه الله، وتعصيه!

فخجل الرجل من هذه الموعظة البليغة، ثم التفت إليه إبراهيم وقال له: أأدلك على شيء آخر؟!

قال: قل يا إمام.

قال: فلا تعصه على أرضه، واذهب إلى أرض غير أرضه فاعص الله فيها.

قال: أين أذهب؟ وهل من مكان لا يملكه الله؟

قال: عجيب!! على أرضه وتعصيه.

فخجل الرجل.

فقال له إبراهيم: أدلك على شيء آخر؟

قال: قل يا إمام.

قال: إذا أردت أن تعصي الله فلا تأكل من رزقه!

قال: وهل من طعام ليس من رزق الله؟

قال: يا رجل، تعلم أنه يراك، وأنت على أرضه، وتأكل من رزقه، ثم تعصيه.

قاله له إبراهيم: وإذا جاءك ملك الموت فقل له: أنظرني.

قال: وهل يسمع ملك الموت لأحد؟!

قال: سبحان الله، يأتيك ملك الموت ولا تستطيع تأخيره، ومع ذلك تعصيه، ألا تخاف أن تكون المعصية آخر عمل لك في الدنيا فتحشر عليها يوم القيامة، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ ❖ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ ❖ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف:٩٩-٩٧).

قال إبراهيم بن أدهم -رحمه الله- أخيراً له: أدلك على أمر أخير؟ فإذا جاء يوم القيامة، وجاءت ملائكة العذاب ليأخذوك إلى النار فقل: خذوني إلى الجنة.

قال: يا إبراهيم هم مأمورون!

قال: فكيف تعصي الله على أرضه وهو يراك، وأنت تأكل من رزقه، وقد يأتيك الموت فجأة، ولا تستطيع أن تغير مصيرك؟!

أيها الشباب

مشاغل الدنيا كثيرة، ولا تقولوا: ننتظر الفراغ، «فاغتنموا شبابكم قبل هرمكم، واستغلوا أوقات فراغكم، ووبخوا أنفسكم على شهوة المعاصي، فقد: حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» (مسلم والترمذي).

وقد أرشد الرسول ﷺ شاباً من صحابته، وهو عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إلى ما ينبغي الاهتمام به في الحياة، فلنستمع إليه رضي الله عنه يقول: «أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». أي لا تركن إلى الدنيا، ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق الغريب به في غير وطنه الذي يريد الذهاب منه إلى أهله.

مثل

لو مرض إنسان مرضاً شديداً، وقال له الطبيب يعالجه: إذا شربت ماءً بارداً ستنتكس صحتك، فاصبر ثلاثة أيام ثم اشرب.

فماذا يقول الناس: لو لم يصبر هذا المريض ثلاثة أيام، وشرب مما حذره الطبيب المعالج؟

حتماً يقولون عنه: إنه أحمق، اذ ما صبر ثلاثة أيام على شهوة بسيطة، فدام مرضه، وانتكست صحته.

حديث المحاسبة

يقول الرسول ﷺ: «الكيِّسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله». (الترمذي).

دان نفسه: يعني حاسبها في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة.

والعاجز: الأحمق.

فإن لذة الدنيا بالنسبة للذة الآخرة كالماء البارد ثلاثة أيام إلى متوسط عمر الإنسان ستين أو سبعين سنة.

أيها الشباب بادروا

استعجلوا وبادروا بالأعمال سبعاً: هل تنظرون الا فقراً منسياً، أو غنىً مُطغياً، أو مرضاً مُفسداً، أو هرماً مُفنِداً، والدجالُ (والدجال شر غائب يُنتظر) والساعة؟ (والساعة أدهى وأمر).

فلنتذكر المعاني التي مرت لتصلح حياتنا في الدنيا، وتبني عليها آخرتنا، ولنراقب الله في السر والعلن، ولنرجع سريعاً إلى الله بالتوبة بعد الخطيئة، وخير الخطائين التوابون (الترمذي).

هل أحصيت القرآن منفذاً محققاً في جوارحك؟ وهل رجعت إلى الله بعد كل خطيئة؟ وهل عزمت ألا ترتكب معصية؟

الفصل الثاني

الدعاء

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من اقتفى خُطاهم واهتدى بهديهم.

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها.

اللهم أقم لنا: من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك.

ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك.

ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافنا ولا يرحمنا.

ادع الحي الذي لا يموت بما شئت، فالجن والإنس يموتون.

معنى الدعاء

نداء تنادي أحداً لغايةٍ ما في نفسك.

ولكن نداء الله تعالى: هو الابتهال إليه بسؤال، والرغبة فيما عنده سبحانه من الخير، والتضرع إليه سبحانه في تحقيق المطلوب.

وهو العبادة لحديث رواه النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: الدعاء هو العبادة، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠)، فقال أصحابه: أقريب ربنا فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: من الآية ١٨٦).

(الترمذي وأبو داود وابن ماجة).

وما من شيء أكرم على الله من الدعاء، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ (الفرقان: من الآية ٧٧)

في الدعاء معنى العبودية الصادقة والتوحيد الخالص لله سبحانه.

الكرم في الدعاء

يرى المسلم أن الدعاء فضل من الله سبحانه وتعالى وكرم منه لأنه:

١- هو أساس تجديد الصلة بالله سبحانه.

٢- وهو أساس تعميق التوجه إليه عز وجل حين يحس بعظمة الله عز وجل.

٣- ويدفعه الدعاء إلى الالتزام الدائم لأمره جلّ جلاله، والاجتناب المستمر لنواهيه.

٤- والاطمئنان الكامل والشعور بالرضا إلى أن الله هو القدير القادر على أن يعينه، لأنه هو السبيل الوحيد لقضاء الحاجات، ودفع المحن والمصائب، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ (النمل: من الآية٦٢)

٥- وهو عنوان الشكر وسبيل العطاء.

٦- وهو إقرار بالعبودية لله سبحانه وتعالى، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (البقرة: من الآية١٨٦).

وقال عزّ من قائل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الكهف: من الآية٢٨).

كن من الذين يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، تتجه إليه في كل شؤونك.

الدعاء أمر من الله

توجيه سامٍ من رب كريم قدير، له الأسماء الحسنى، بقوله عزّ من قائل: ﴿وقال ربكم ادعوني﴾ فتأمل أمر الله بالدعاء، وقد وعد العزيز بالاستجابة: ﴿أستجب لكم﴾ (غافر:٦٠).

وترك الدعاء إنما يكون من وساوس الشيطان، ومن قسوة القلب، قال تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:٤٣)

وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يسأل الله يغضب عليه». (الترمذي).

وقال الشاعر:

الرب يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يُسأل يَغضب

الاستجابة

لا تسأل عن السبب وعن كيفية الاستجابة! فللاستجابة طرق لا تعلم كنهها ولا نوعَها، إذ ليس بالضرورة أن تحصل على ما تريد.

يجيب الله دعاء الداعين في الجملة، وأنه قريب من الداعي يسمع دعاءه، ويعلم اضطراره، فيجيبه بما شاء وكيف شاء، وقد جاء في الحديث: «من فتح له باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة». (الترمذي).

وقال عمر رضي الله عنه: لا أحمل هم الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء، ولكن إذا ألهمتُ الدعاء فإن الإجابة معه.

وتكون استجابة الدعاء بإحدى ثلاث:

١- أعطاه الله ما سأله.

٢- أو صرف عنه سوءاً.

٣- أو ادّخر له، لحديث: «ما من عبد مسلم يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل، أو ادخر له في الآخرة خيراً منه، أو كف عنه من السوء مثله». (الترمذي).

واستبشر خيراً وباستجابة محققة إذا أطلقت لسانك في الدعاء، فقد قيل: ما أطلق لسانك بالدعاء إلا ليعطيك.

ليكن لذة المناجاة دافعة إلى الدعاء في نفسك.

كيفية الدعاء

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ❖ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف:٥٦-٥٥)

يحب الله الدعاء، وقد بين لعباده كيفيته، فينبغي أن يكون:

١- تضرعاً وتذللاً لله، ولله المثل الأعلى كمن يتجه إلى شخص ما بحاجة شديدة، فيأتي، ويقبل رأسه، ويتضرع إليه، فالله هو المقصود بالحاجات، وهو الصمد سبحانه فاقصُده متضرعاً.

٢- خُفية، لا يسمع أحد دعاءه سواه، فليكن بينه وبين ربه بلا واسطة، في الفراش، أو على البحر، أو في السيارة، أو في الطريق، لأن الخفية بالسر خالٍ من الرياء.

٣- الشعور بقرب الله، والله سبحانه أقرب إلى الداعي من حبل الوريد، وهذا يجعل الإنسان أن يدعو سراً، فقد ورد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس: اربَعوا (تثبتوا وانتظروا) على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً، وهو معكم، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته». (البخاري ومسلم وأبو داود).

٤- الاطمئنان بالاستجابة الربانية، يقول ربنا سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل: من الآية٦٢).

٥- العزيمة

وهو العزيمة بأن الله صانع ما يشاء، وقادر على إعطائه، فلا يقل: «اللهم إن شئت فأعطني، فإن الله لا مستكره له». (البخاري ومسلم).

فالأمر بالدعاء من الله، ووعد بالإجابة، بلا فاصل بينهما (الدعاء والإجابة).

بالتذلل والسرية، وبصدق من القلب يدعو المسلم مطمئناً للاستجابة، ويجزم على الدعاء بعزيمة.

من له القدرة؟

من يستطيع من البشر تلبية المضطرين؟ هل يستطيع أي مسلم أن يستجيب؟!

١- لمن به هموم شخصية؟

٢- لمن به هموم الأمة؟

٣- لمن به هموم العمل الإسلامي؟

٤- لمن به هموم عمل خيري للمحتاجين والضعفاء والأيتام؟

٥- لمن به حاجات أخرى لا تعد ولا تحصى، فلا يخلو المرء من أكدار ما دام في هذه الدار الدنيا.

مهما أوتي الإنسان من مال أو خير، أو عقل أو قوة وغير ذلك من القدرات هل يستطيع أن يستجيب لهؤلاء المضطرين المحتاجين!

الله وحده الغني

الله رب العالمين يلبي ويستجيب وحده، وهو الذي يحتاج إليه كل مخلوق، فقد جاء في الحديث القدسي: يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحدٍ فسألوني، فأعطيت كلّ إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخيَط (الإبرة) إذا أدخل البحر. (مسلم).

أي أنه لا ينقص من ملكه شيء سبحانه وتعالى، فهو سبحانه يستطيع أن يسع الناس بحاجاتهم.

لذلك وهو القائل: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ❖ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ❖ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ (الحجر: ٢١-١٩).

لذلك.. ولذلك فادع أيها المسلم، وتفنن في الدعاء، بدعاء بسيط، بدعاء مأثور، بدعاء عالم، بدعاء يخرج من القلب ولو بلهجة عامية، ولو بلغة غير العربية، فالله يعلم ما في النفس، ويعلم ما يريد الداعي.

قال الشاعر:

اطلب ولا تضجَرنْ من مطلب فآفةُ الطالب أن يضجرا

أما ترى الحبل بتكراره في الصخرةِ الصماء قد أثّرا

لغة الدعاء

فقد ورد أن الرسول ﷺ وهو الذي أوتي جوامع الكلم يدعو، ويعلم أصحابه الدعاء بأدعية فيها كلام مرتب مصفّف بليغ، وفيها أحياناً بعض السجع، فيحفظ من يحفظ، وقد يعجز بعضهم عن حفظها، مثل:

قال عبد الله بن مسعود: كان رسول الله ﷺ يعلمهم الدعاء بعد التشهد: «ألِّف اللهم على الخير قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش والفتن، ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها، قابليها، وأتمها علينا». (أبو داود، والحاكم في مستدركه).

حاول أعرابي أن يحفظ من أدعية الرسول ﷺ فما استطاع، فاستمع إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه وكان قد حفظ دعاء الرسول ﷺ.

فجاء الرسول ﷺ إلى هذا الأعرابي فقال: كيف تقول في الصلاة؟

قال: أتشهد ثم أقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ودندنة معاذ.

فقال رسول الله ﷺ: حول ذلك ندندن أنا ومعاذ.

ادع بما شئت بلغة بسيطة على لسانك ولا تتكلف. المهم الدعاء.

الدعاء والتفكر

كيف تكون صلاة بلا تفكر، ولا تذلل، ولا تضرع؟ أهي ركوع وسجود وأعمال لا يدري القائم بها؟

فإذا خلت الصلاة من الذكر والتفكر (الدعاء) أثناء الأداء لا أثر لها بتربية النفس وإصلاح الذات.

فلا تستغرب عمل منكرات ممن يصلي! وهو لا يتذلل ولا يتضرع، فيكف يُرقق قلبه، ويُمنع من المنكر؟

الصلاة الصحيحة المليئة بالذكر والتفكر والدعاء تمنع صاحبها من المعصية، لذلك: ينبغي ألا يغفل المسلم في صلاته وأعماله عن صفتي الله سبحانه: البصير والسميع، فهو البصير يرى، وهو السميع الرقيب، وكذلك في الدعاء، فقد جاء في الحديث: «واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ». (الترمذي).

لا تقع المعصية إلا ممن غفل عن أسماء الله الحسنى أو صفاته سبحانه وتعالى ولا يتفكر في عبادته ودعائه.

أفضل الدعاء

١- ما جاء من الأدعية في كتاب الله الكريم.

٢- ما ورد على لسان رسول الله ﷺ في السنة الصحيحة.

٣- ما ثبت على ألسنة الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

٤- ما نقل عن السلف الصالح من أدعية.

٥- ما صدر من قلب خاشع بلغة (الدندنة) كما سبقت الإشارة إليها.

شروط الدعاء

للدعاء المستجاب شروط، وكلما التزم بها المؤمن كانت الأدعية أقرب لتحقيق المراد وأكثر قبولاً.

فمن هذه الشروط:

١- عدم الاستعجال، بأن يصبر الداعي، وينتظر، لأن الله تعالى وحده يقرر هو سبحانه متى تكون الاستجابة أفضل له، وفي رواية للإمام مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل، قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أرَ يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء، أو يظن أن الله ما سمع دعاءه».

كان رسول الله صل يدعو للمسلمين بالنصر ويدعو لهم بالفتح ولا يأتي النصر ولا الفتح إلا بعد سنين، ليكن الداعي على يقين الاستجابة لا على معرفة الوقت.

٢- الدعاء بالمباح، فقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «ما من رجل يدعو الله بدعاء إلا استجيب له، فإما أن يعجل له في الدنيا، وإما أن يدخر له في الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل». (الترمذي).

٣- التكرار والإلحاح.

فقد ورد عن الرسول ﷺ أنه: «لم يزل في الدعاء والتضرع والتكبير كما في صلاة الاستسقاء» (الترمذي وأبو داود والنسائي).

والطلب مع الإلحاح يحبه الله سبحانه وتعالى، قال الشاعر:

أطلب ولا تضجرَنْ من مطلب فآفة الطالب أن يضجرا

فعلى المسلم الدعاء أما الاستجابة -وإن كانت مضمونة- فالله سبحانه وتعالى أعلم بما يحتاج إليه العبد وبما ينفعه، روي أنه في إحدى القرى وقد أصابها قحط ولم يأتها المطر، فأخذ أهلها بالتضرع والاستسقاء فلم يهطل المطر، ثم عادوا فاستسقوا ودعوا فما هطل المطر، وهكذا مرات، ثم جاؤوا إلى عالم لهم صالح، فقالوا له: لقد استسقينا فلم نُسقَ. فقال: تعالوا معي. ومشى معهم حتى أتوا إلى بستان، فطرق العالم باب البستان طرقاً شديداً حتى أتى صاحب البستان، فسأله العالم: أسقيتَ زرعك؟!

قال: نعم.

قال: كم مرة؟

قال: أسقيه على فترات حسب حاجة الزرع.

قال: اسقِه الآن.

قال: لقد سقيته قبل فترة.

قال: اسقه الآن.

قال: يا شيخ، أنا أعرف متى يحتاج زرعي، لأن السقي في غير أوانه يضره.

قالوا: فرجع العالم إلى بيته ولم يكلم الناس حتى دخل بيته.

فجاء إليه الناس وقالوا: لم تطلب السقيا لنا.

قال: أما سمعتم قول المزارع:أنا أعلم بزرعي ومتى يحتاج. ؟ فالله يعلم متى يسقيكم ويسقي زرعكم.

وأضرب لكم مثلاً من الواقع:

رجل من أصحابي: تقدم لخطبة فتاة جميلة، غنية، صاحبة نسب وداعية، فيها كل ما يرجوه الخاطب أي خاطب كان، حازت الغنى والنسب والجمال.

وافق أهلها، وكلما أراد إتمام الزواج، وإقامة حفل الزفاف تحدث مشكلة، وتسدُّ الطرق، وتتطور إلى مسائل جديدة، حتى فُسخت الخطبة، مما أثر على نفس صاحبي، فتوقف عن المحاولة ولم يعد يخطب.

إلى أن جاءت الأيام، وخطب أخرى وتزوجها وكان زواجاً ميسراً بإذن الله.

ومع الوقت أصبحت الأولى تاركة دعوتها، تنحرف عن السبيل السوي.

أما زوجته الثانية فقد أصبحت داعية نشيطة، تعينه على دينه ودنياه.

فالله هو العليم الحكيم، يعلم ما يصلح للإنسان ويعلم متى يعطيه، والله يرزق من يشاء بغير حساب.

ما عليك أيها المسلم إلا أن تستسلم له، وتدعو وتلح، وتتضرع وتتذلل له، ولا تستعجل.

عطاء الملل

تصور أيها الأخ الداعي إلى الله بدعوته وحاجاته رجلاً فقيراً يمسكك ويلح عليك: أعطني، أعطني، أعطني، ويستعطفك، ويسألك بالله، ويتضرع إليك.

أما ترى بعض الناس يعطيه من الملل، حتى ينتهي من إلحاحه.

فلله المثل الأعلى في كل شيء، وحاشا لله أن يمل، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صِفراً خائبتين». (الترمذي وأبو داود).

٤- أكل الحلال

بأن يكون رزقه كله حلالاً، طعامه، شرابه ولباسه.

فقد ثبت عن النبي ﷺ: ذكرَ الرجل يطيل السفر أشعث أغبر (أي في حالة يُرثى لها حريّ أن يستجاب له كما يُظن).

يمد يده إلى السماء: يا رب، يا رب (من المتوقع أن يستجيب الله له).

ويتابع الحديث رسولُ الله ﷺ، فيقول: ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام (شبع من الحرام)، فأنى يُستجاب له؟! (استبعاد لقبول إجابة الدعاء).

وفي الحديث حضّ للدعاء، وحث على اختيار الحلال في الرزق.

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين»، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ (المؤمنون: من الآية٥١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة: من الآية١٧٢).

ثم ذكر الرجل يطيل السفر.. إلخ (مسلم)

دعاء آكل الحرام مستبعدٌ قبولُه.

موانع استجابة الدعاء

ليس الأمر اجتهاداً في ذكر الموانع من استجابة الدعاء، بل وردت في ذلك أخبار:

١- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فقد جاء في الحديث والرسول ﷺ يحلف فيقول: «والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهوُنَّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابه منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم». (الترمذي).

وذلك ممن رأى المنكر ولم ينه عنه، إذ جاء في الحديث، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا عُملت الخطيئة في الأرض، كان من شهدها وكرهها -وفي رواية فأنكرها- كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها». (أبو داود).

٢- ارتكاب الذنوب والمعاصي.

فقد روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم، فلم ينتهوا، فجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم (وهذه معصية ظاهرة) فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، ولم يقبل منهم أعمالهم ومنها الدعاء».

٣- استيلاء الغفلة والشهوة وهوى النفس، وقد سبقت الإشارة إلى بعض الموانع خلال الفصل هذا.

مظنة الاستجابة

وهناك أحوال للبشر، هي مظنة لاستجابة الدعاء أكثر من غيرها منها:

١- دعوة المظلوم، فقد ورد أن الرسول ﷺ قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: اتّق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب. (البخاري ومسلم والترمذي والنسائي).

قال الشاعر:

نامت عيونك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

لا تستغرب

أرسل الحجاج إلى الحسن البصري ليبطش به، وجاء الحسن وهو يدعو بأسماء الله الحسنى وصفاته جل جلاله ليكفيه شر هذا الظلم، ولا تستغرب حين وصل الحسن أن قام الحجاج يستقبله لدى الباب ويجلسه معه على السرير.

٢- دعوة الغائب لغائب، فقد أورد مسلم عن أبي الدرداء مرفوعاً: دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه مَلَك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل، أي أن المَلَك يدعو له ويقول لك بمثل ما تدعو لأخيك الغائب.

٣- دعوة المسافر، فأكثر من الدعاء في سفرك أيها المسلم، وليلهج لسانك بالدعاء فيما تريد وتأمل.

لقد اقترنت هذه الدعوة بدعوة المظلوم في حديث: ثلاث دعوات مستجابات لا شك في إجابتهن، دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على الولد.

٤- دعوة الوالد على ولده كما في الحديث السابق.

٥- دعوة الولد لوالده، قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». (مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي).

وكان سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالى- يقول: إن الرجل ليُرفع بدعاء ولده من بعده.

٦- في حال الحج والعمرة وبعد إقامة الفرائض.

٧- الصائم حين يُفطر، لقوله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم». (الترمذي وأبو داود).

٨- الإمام العادل كما سبق في الحديث.

«وجاء في الحديث من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء في الرخاء». (الترمذي).

لا تنسَ الدعاء أيام فرحك وسرورك حتى إذا دالت الأيام وضاقت عليك فإن الدعاء عند ذاك مستجاب ومظنة استجابة كما قيل: اذكر الله في الرخاء يذكرك في الشدة.

الدعاء في جميع الأحوال مرغوب فيه، فاحرص على ذلك.

أفضل الأوقات

١- الثلث الأخير من الليل (السّحر).

جاء في الحديث الصحيح: ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني؟ فأستجيب له، من يسألني؟ فأعطيه، من يستغفرني؟ فأغفر له. (البخاري ومسلم).

٢- دبر الصلوات المكتوبات، بعد الفرائض، فقد سأل أبو أمامة رضي الله عنه فقال: «يا رسول الله، أي الدعاء أسمع؟ قال: جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات». (الترمذي).

وقال مجاهد: إن الصلاة جعلت في خير الساعات، فعليكم بالدعاء خلف الصلوات.

٣- بين الأذان والإقامة، فقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «الدعوة لا ترد بين الأذان والإقامة فادعوا». (أحمد بن حنبل وابن خزيمة وابن حبان).

٤- عند الأذان وعند لقاء العدو حين الهجوم، فقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «ثنتان لا تردان -أو قلما تردان- عند النداء، وعند البأس، حين يلحم بعضهم بعضاً». (أبو داود، الموطأ).

٥- ساعة يوم الجمعة، فقد جاء في الحديث: قال عليه الصلاة والسلام: «إن في الجمعة ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا أتاه الله إياه». (الترمذي).

٦- أثناء السجود، فقد قال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد، فأكثروا الدعاء». (مسلم وأبو داود والنسائي).

٧- ليلة القدر، ويوم عرفة، والعشر الأوائل من ذي الحجة، وشهر رمضان، لورود أحاديث في ذلك مشهورة وصحيحة.

٨- عند إرادة النوم، وكان صلى الله عليه وسلم إذا أراد النوم وضع يده اليمنى تحت خده ثم يقول: «اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك. ثلاثاً». ويقول غيره من الأحاديث التي فيها من الدعاء الشيء الكثير.

سل الله في كل شؤونك وحاجاتك، ولكن أعظم الدعاء على العظيم جل جلاله عند المسألة.

قصة أعجبتني

روي أن أبا حنيفة رحمه الله ذهب ليحلق بعد انتهائه من مناسك الحج إلى حلاق وجلس عنده، ثم سأله: بِكَم؟ (سأل عن أجرة الحلاقة).

فقال الحلاق: يا رجل، هذا نسك لا يشارط عليه.

جلس أبو حنيفة وقال: احلق.

فقال الرجل: أعطيتني جانب اليسار، وهذه عبادة، ومن السنة التيامن.

فتعجب أبو حنيفة منه وأعطاه، وقال: احلق.

فقال الحلاق: يا رجل، استقبل القبلة فهذا نسك.

فالتفت أبو حنيفة إلى القبلة متعجباً من حلاق فقيه، فقال: احلق.

فقال: إن الحلاقة فرض وهذا نسك، فادعُ الله تعالى.

ساعة الجمعة

وردت أقوال في تحديدها، والمهم أن تدعو في ذلك اليوم لعلك تنال فضيلة الدعاء فيها.

١- قالوا: يا رسول الله، أية ساعة هي؟ قال: حين تقام الصلاة إلى انصراف منها. (الترمذي).

٢- هي أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة. (مسلم وأبو داود).

٣- بعد صلاة العصر إلى غيبوبة الشمس، لقول الترمذي: ورأى بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أن الساعة التي ترجى فيها بعد العصر إلى أن تغرب الشمس، وبه يقول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه.

٤- آخر ساعة من العصر، لقول رسول الله ﷺ: «فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر». (أبو داود والنسائي).

الهمة العالية في الدعاء

سل ربك كل شيء أيها الداعي، ولكن سل ربك بهمة عالية، فسل مرافقة الرسول ﷺ وسل الفردوس الأعلى، وسل الله العافية في الدنيا والآخرة. (الترمذي).

ولا تقنع بالقليل من فضل الله أثناء دعائك، فعظّم للعظيم مسألتك والدعاء.

وهناك أحاديث عديدة من رسول الله ﷺ مما كان يسأل رسول الله ﷺ ربه، فيقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى». (مسلم والترمذي).

وسل الله أن يديم النعمة ويمنَّ عليك بالشكر.

هيئة الداعي

لا يقفز الإنسان مباشرة إلى الدعاء بقوله: يا رب أعطني، يا رب أسألك، وما يشبه ذلك، بل يبدأ:

١- بالمدح والثناء على الله سبحانه وتعالى، لقوله ﷺ لرجل صلى ولم يمجد الله فقال: عجل هذا ثم دعاه، فقال له أو لغيره: إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه، والثناء عليه.

٢- «ويصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بما شاء». (الترمذي وأبو داود والنسائي).

سمع ﷺ رجلاً يصلي فمجّد الله وحمده، وصلى على النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ادع تُجبْ، سل تُعط». (النسائي).

والتمجيد هو التعظيم، ومن أولى بالتعظيم غير الله سبحانه وتعالى؟!.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كنت أصلي والنبي ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما معه، فلما جلست بدأت بالثناء على الله، ثم الصلاة على النبي ﷺ، ثم دعوت لنفسي، فقال النبي ﷺ: «سل تُعطهُ، سل تُعطهُ». (الترمذي)

٣- رفع اليدين حين الدعاء فإن رسول الله ﷺ رفع يديه حتى رُئي بياض إبطيه. (البخاري).

٤- يدعو الإنسان ببطن كفيه ثم يمسح بهما وجهه، لما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سألتم الله فسلوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بأظهرها». (أبو داود).

وعن عمر رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه. (الترمذي).

وهذا الحديث له شواهد يرتقي إلى درجة الحسن، وقال الصنعاني في سبل السلام: وفيه دليل على

مشروعية مسح الوجه باليدين بعد الفراغ من الدعاء، فكأن الرحمة أصابتهما، فناسب إفاضة ذلك على الوجه الذي هو أشرف الأعضاء، وأحقها بالتكريم.

٥- أن يدعو ثلاثاً، فقد كان ﷺ يعجبه أن يدعو ثلاثاً. (أبو داود) أي حين يدعو -عليه الصلاة والسلام- يكرر الدعاء ثلاث مرات.

الأَوْلى

أن يعمل المسلم بما سبق ذكره من هيئة وسنن، وإن كان لا يشترط للدعاء هيئة معينة ولا وضوء ولا غسل ولا جلوس ولا موقف ولا حال.

النهي عن الدعاء

هناك أمور نهي المسلم عن الدعاء حينها، منها:

١- الدعاء على النفس، فقد جاء في الحديث: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون». (مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي).

حتى ولو وقعت معصية من نفسك فادعُ لها لا عليها، وقل: «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عمّن سواك».

٢- الدعاء على الأولاد والخدم والأموال، قال رسول الله ﷺ: «ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكُمْ، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله عز وجل ساعة نيل فيها عطاء فيستجيب لكم». (مسلم والترمذي).

فإن فيه خشية أن توافق الأدعية ساعة استجابة، وقد تقع الاستجابة الفورية، فلينتبه الإنسان على ذلك خاصة عند الغضب، فالغضب نار من الشيطان، ويمكن أن تقع الاستجابة بدعائه على المذكورين (على النفس والأولاد) فيندم ولاتَ ساعة مندم.

تربية جميلة

لقد أعجبتني تربية صديق لأولاده - في أمريكا- فقد كان الأولاد - وهذا شيء طبيعي- يتصارعوا ويتخاصموا، فكان إذا انزعج أحدهم من الآخر يقول له: الله يهديك، فيرد الآخر عليه: الله يوفقك. وإن هذه الكلمات كانت تصدر منهما تعبيراً عن الغضب في نفسيهما كل على أخيه، وما أجمل تلك الأدعية في الخصام.

لا بأس بالدعاء

وذلك أن تدعو على ظالم، أو طاغية، أو فاجر. (قال عليه الصلاة والسلام: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد، فو الذي بعث محمداً بالحق لقد رأيت الذين (الراوي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه) سمّى صرعى، ثم سحبوا إلى القليب يوم بدر». (البخاري ومسلم). وأن تدعو على الظالمين فتقول: يا جبار يا شديد العقاب عليك باليهود ومن والاهم.

أما إذا ارتكب الرجل معصية فالأحسن الدعاء له حتى يرجع ويتوب، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذا بأس، وكان يفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ففقده عمر رضي الله عنه، فقال: ما فعل فلان بن فلان؟

فقالوا: يا أمير المؤمنين، تتابع في هذا الشراب! والعياذ بالله، أي ابتُلي بشرب الخمر.

قال: فدعا عمر رضي الله عنه كاتبه، فقال: اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان:

سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (غافر:٣).

ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقبل بقلبه، ويتوب الله عليه، فلما بلغ الرجلَ كتابُ عمر رضي الله عنه جعل يقرؤه، ويرددده، ويقول: غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، قد حذرني عقوبته، ووعد أن يغفر لي. (حياة الصحابة/٤).

وفي رواية الحافظ أبي نعيم في الحلية، فلم يزل يرددها (ذاك الرجل) على نفسه ثم بكى ثم نزع (ترك) ما كان يفعل من شرب فأحسن النزع، فلما بلغ عمرَ رضي الله عنه خبرُه، قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زلّ زلّة، فسددوه، ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه. (حياة الصحابة/٤).

أماكن الاستجابة

ويتحرى الداعي الأماكن التي يحبها الله سبحانه فيدعو بها، ويغتنم فرصة وجوده فيها فيدعو، ومن هذه الأماكن:

١- مواطن الحج كلها، عرفة، عند رؤية البيت، بين الصفا والمروة، في المزدلفة.

٢- المساجد، ومن أعظمها: بيت الله الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى (فك الله أسره، وأعاده للإسلام والمسلمين). لحديث رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، والمسجد الأقصى». (البخاري ومسلم).

وقد قال عليه الصلاة والسلام للصحابة رضوان الله عليهم: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قلت (الراوي أبو هريرة): يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: المساجد، قلت: وما الرتع؟ قال رسول الله ﷺ: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر».

الدعاء والقضاء والقدر

الله يقذف في قلب العبد حركة الدعاء، ويجعلها سبباً للخير الذي يعطيه إياه، فالله سبحانه وتعالى وفقه للدعاء ثم أجابه، فما أثر في هذا الدعاء والإجابة شيء من المخلوقات، بل جعل الله سبحانه وتعالى ما يفعله سبباً لما يفعله.

فالدعاء إذن سبب من الأسباب، بل هو من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، فقد أخبر القرآن عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر في البحر دعوا الله مخلصين له الدين، وأن الإنسان إذا مسه الضرّ دعا الله لجنبه أو قاعداً أو قائماً.

والدعاء سبب لرد البلاء، واستجلاب الرحمة، كما أن الدرع سبب لرد الرصاص، والتُّرس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات.

والذي قدَّر الخير قدّره بسبب، والذي قدّر الشر قدّر لدفعه سبباً، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى ألا يحمل السلاح، وألا يلبس الدرع، وألا يسقي الأرض بعد نشر البذار.

ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول، والدعاء سبب لرد البلاء.

أمثلة

١- الله سبحانه يحكم أن فلاناً ستصيبه مصيبة إذا ذهب إلى المكان الفلاني، فإن ذهب ولم يدع حلّت به، وإن دعا لم تحلّ به.

٢- الطالب إذا حضّر ودرس ودعا سينال درجة ممتازة، وإلا فلا.

فالدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب، والسبب له شروط وموانع، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب، وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب بل قد يحصل غيره، كالرجل الذي استعمل دواء نافعاً في الوقت الذي ينبغي، فانتفع به، وليس أخذ الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب.

القضاء لا يقع مجرداً وإنما يقع بشروط، والدعاء يرد القضاء من ضمن هذه الشروط.

أدب الدعاء

١- أن يدعو الإنسان ربه دون واسطة، فليس بين الله وعبده المسلم واسطة، والإسلام جاء بهذا، فالله هو السميع البصير.

٢- أن يتفكر في خلق السموات والأرض ويعلم أن هذا الكون لم يُخلق باطلاً، كما ورد في الآية الكريمة: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: من الآية١٩١).

٣- يتأثر وينفعل من التفكر فيتجه عند ذلك إلى الدعاء بصدق.

٤- ويختار من أسماء الله الحسنى ما يوافق حاجته، ففي كل اسم يخطر بباله الوصف الدال عليه، فإن كان بحاجة إلى الرحمة فيدعو بالرحمن الرحيم، وإن كان بحاجة إلى الرزق فيدعو باسمه الرزاق، وإن كان يريد إلى رد الظلم فيدعو بالجبار القوي العزيز. وهكذا، وإن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها (أي تفكر في مدلولها) معتبراً متدبراً ذاكراً راغباً راهباً معظماً لسماها دخل الجنة.

٥- يسأل الله ذا الفضل العظيم من فضله، فقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج». (الترمذي).

وتشير الآية الكريمة إلى ما سبق: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران:١٩١-١٩٠)

يسأله كل شيء

الأمور التي لها منزلة أعلى في الطلب، كالهداية، والطريق السوي، والبعد عن الانحراف في العقيدة والعمل والبدع، والالتزام بالكتاب والسنة، وما يصلح من أحوال الإنسان في الدين والدنيا، لأحسن الأخلاق والهدى والسداد، والمغفرة والجنة، والنجاة من النار، والعفو والعافية، والثبات على الدين، وحسن العاقبة، وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم يستفتح به صلاته بالليل: اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، ويطلب من الله العون على الدعاء والعبادة. فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها، حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع، وزاد في رواية، حتى يسأله الملح». (الترمذي).

باب الكرم مفتوح ولا حدّ له، فليطلب المسلم من ربه الكريم ما شاء، وأعظم طلب هو المغفرة.

ترك الدعاء تكبر

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:٦٠).

وإن الله لا يحب المتكبرين، ولا الجبارين.

ثمرات الدعاء (فوائده)

١- إن الدعاء يُجدد العزيمة مستعيناً بالله رب العالمين، القوي العزيز.

٢- يتحقق بالدعاء معنى التوحيد، فلذلك لا يدعو الإنسان مسلم نبياً ولا ولياً أو شيطاناً في أية حاجة، وتحقيق ذلك هو الإخلاص، وإن التوجه بالدعاء إلى غير الله هو الشرك أيّاً كان المتوجه إليه.

٣- يربي الدعاء في الإنسان الحياء، فعندما يستجيب الله تعالى شيئاً لمؤمن فإنه يستحيي أن يجحد النعمة، أو ينتهك حرمة من حرمات الله.

٤- ينقل الدعاء الإنسان إلى عالم الروح، إلى رحاب المناجاة بصفاء القلب، والبعد عن صخب الحياة وهمومها.

٥- يعين الدعاء صاحبه على مخالفة الهوى والشيطان.

٦- يذكره الدعاء بحضور القلب مع الرحمن، فلا يدعو فقط وقت الشر أو الضر كما ذكرت الآية ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (فصلت: من الآية٥١).

وإنما يدعو وقت الخير والشر، فالمسلم دائم الإقبال على الله رب العالمين.

الدعاء صلة بين الداعي وربه، فليخلص القلب وليجد لذة الدعاء على لسانه.

نماذج من الأدعية

١- من القرآن الكريم على لسان الأنبياء.

❖ آدم وزوجه عليهما السلام: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣)

❖ نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾ (نوح:٢٨).

❖ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (إبراهيم:٤٠)، وأدعية عديدة أخرى على لسانه عليه السلام.

❖ يونس عليه السلام: ﴿لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: من الآية٨٧).

❖ أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: من الآية٨٣).

❖ سليمان عليه السلام: ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: من الآية١٩).

❖ زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران: من الآية٣٨).

٢- من القرآن، وجاء في الأحاديث النبوية تعليماً لنا:

❖ ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ (الإسراء:٨٠)

❖ ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ (الفرقان: من الآية٧٤)

❖ ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طه: من الآية١١٤).

❖ ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (المؤمنون:١١٨)

❖ ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٨٦)

❖ «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». وكان هذا من أكثر دعاء الرسول ﷺ. (البخاري ومسلم وأبو داود).

❖ ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأحقاف: من الآية١٥)

٣- أدعية من الأحاديث:

فقد جمعها أصحاب السنن، وخص بعضُهم أدعيته ﷺ بفصول، وبعضهم بكتب وأبواب، فمن شاء المزيد فليرجع إليها، وليحفظ وليدعُ من مثل البخاري ومسلم والموطأ ومالك والترمذي وأبو داود. وقد لخص النووي -رحمه الله تعالى- أذكار الرسول - في كتاب سماه (الأذكار) وقد خُرجت أحاديثه.

❖ وله ﷺ أدعية الصلوات وما بعدها، وأدعية الصباح والمساء، وأدعية كل عبادة، وأدعية الأحوال، وقضاء الحاجات.

- سئلت أم سلمة رضي الله عنها: يا أم المؤمنين، ما كان أكثرُ دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، قالت: فقلت له: يا رسول الله، ما أكثر دعائك بهذا؟ قال: يا أم سلمة، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن أشاء أزاغ. (أخرجه الترمذي).
- اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون.
- اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إليك.
- اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ﷺ ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ، وأنت المستعان، وعليك البلاغ ولا حول ولا قوة إلا بالله. (الترمذي).
- اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني.

خاتمة بدعاء

اللهم طهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

اللهم اجعلنا خيراً مما يظنون، واغفر لنا ما لا يعلمون.

اللهم أجرنا وإخوتنا من النار، وارزقنا الجنة.

اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار، اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً يا رب العالمين.

رب أعنّي ولا تُعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، وامكر لي ولا تمكر عليّ، واهدني ويسر الهدى إليّ، وانصرني على من بغى عليّ.

رب اجعلني لك شاكراً، لك ذاكراً، رهاباً لك، مطواعاً إليك، مخبتاً إليك أواهاً منيباً.

رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي.

وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي. (والسخيمة: الحقد والضغينة).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث

الرحلة الأخيرة
الموت

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء، واستأثر باستحقاق البقاء، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصاً للأتقياء، وموعداً في حقهم للّقاء، وجعل القبر سجناً للأشقياء، وحبساً ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء.

والصلاة والسلام على محمد ﷺ ذي المعجزات الظاهرة، والآيات الباهرة، وعلى آله وصحبه وسلم.

اليقين

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: من الآية١٨٥).

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام:٦١)

وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف:٣٤)

الموت أمر حق، كتبه الله على كل نفس، حتمية لا بد منها، قال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران:١٨٥).

وقال الشاعر:

حكمُ المنية في البرية جارٍ ما هذه الدنيا بدار قرار

اليقين الذي لا يشك فيه أحد هو الموت.

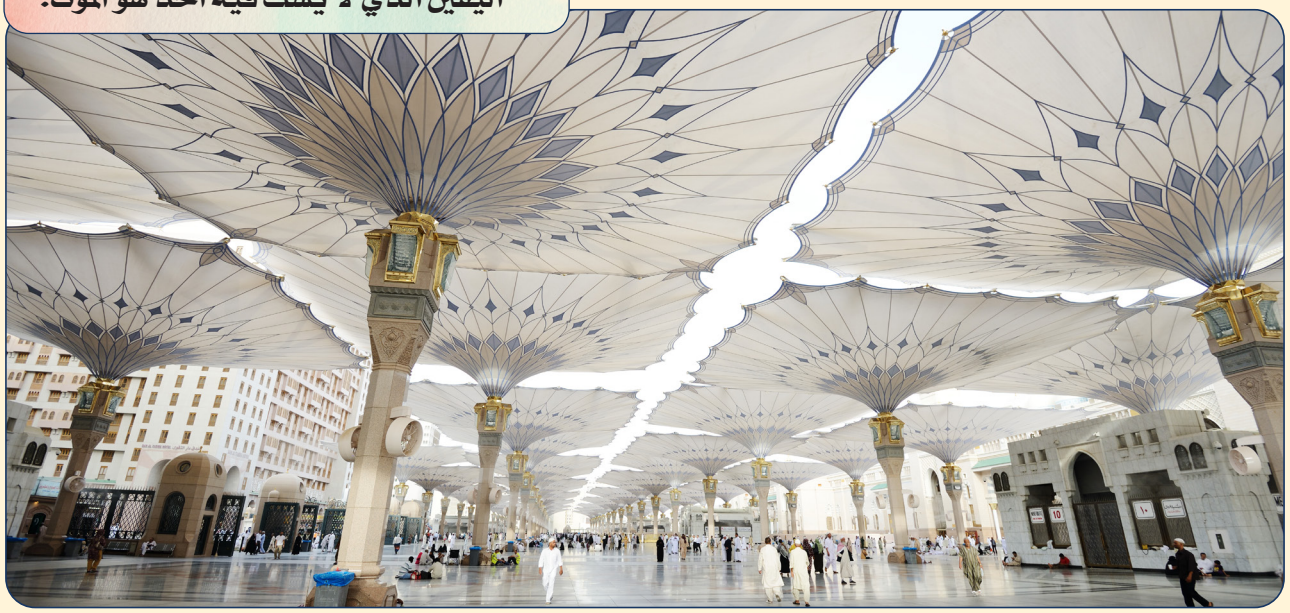

غيب أمره

منّ الله سبحانه وتعالى على عباده بعدم معرفة موتهم، لأن الإنسان لو عرف متى يموت لتعب بالتفكير لشدة الموت.

يقول سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾(النساء: من الآية٧٨).

ويقول تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان: من الآية٣٤).

وإنه لا مفر من هذه الحقيقة ولا مهرب، ولكن طبيعة النفس البشرية تحب البقاء، وتكره الموت، فالعاقل الذي يعرف هذه الحقيقة يستعد لها ويعمل لما بعدها، قال مطرف بن عبد الله: لو علمت متى ذهاب أجلي لخشيت على ذهاب عقلي.

إن الموت ملاقي الإنسان في المكان والزمان اللذين هما في الغيب.

التذكير بالموت

أكرهُ ما يكرهه الإنسان ذكر الموت، ويكره تذكير أحد إياه به، لأنه يرى أن ذلك منغّص للحياة.

وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل، لأنه لا بد أن يؤثر في مسير الإنسان الذاكر، ويكون سبباً للنجاة. قال الشاعر:

والنفس ترغب في الدنيا وقد علمت ... أن الزهادةَ فيها تركُ ما فيها

فاغرس أصول التقى ما دمت مجتهداً ... واعلم بأنك بعد الموت لاقيها

ولكن الذي يعرف أن الموت سبيل إلى يوم الفصل، استعدّ له استعداداً، وجهز حِمله ونفسه لهذه الرحلة الأخيرة التي لا رجعة منها.

قال عليه الصلاة والسلام: أكثروا من ذكر هادم اللذات. (الترمذي والنسائي).

وكذلك كان دأب الصالحين، قال الحسن البصري -رحمه الله-: فضح الموتُ الدنيا فلم يترك لذي لبّ فرح.

وروي عن حذيفة رضي الله عنه أنه لما حضرته الوفاة قال: اللهم إن كنت تعلم أن الموت أحب إليّ من العيش فسهّل عليّ الموت حتى ألقاك.

المنهمك في الدنيا لا يذكره، والتائب يذكره خشية أن يختطفه الموت قبل التوبة.

ذكر الموت

١- يجعل في النفس استعداداً للرحيل إلى الحياة الحقيقية، الدائمة التي لا نهاية لها، ولا انقطاع.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت: من الآية٦٤)، أي: الحياة الأصلية، لذلك يشعر المسلم أنه عابر سبيل، فلا تغيره أعمال الطريق للّهو واللعب.

وقد ورد في الحديث: «أكثروا من ذكر هادم اللذات» (الترمذي والنسائي) فإن ذكره يمنع الركون إلى الدنيا، وتصبح الحياة الدنيوية لا لذة فيها، وإنما يعرف الذاكر أن اللذة كامنة في حياته ليوم الرحيل.

٢- لا يغفل الذاكر في ملذات الدنيا، ولا يستغرق فيها، ويعلم أنها متاع زائل، فإذا رأى شيئاً منها وذكر الموت قلل مكانتها في نفسه.

٣- ويقارن المسلم الذاكر بين المتاع الزائل متاع الدنيا وبين النعم التي لا تزول يوم القيامة، فيفضل النعيم الذي لا رأت عين مثله، ولا أذن سمعت به، ولا يخطر على قلب بشر، قال لبيد بن ربيعة رضي الله عنه أحد شعراء المعلقات-:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

يريد به كل نعيم في الدنيا، أما نعيم الجنة فإنه لا يزول أبداً.

٤- يعلم حقّ العلم أنه يخرج من شقاء (فالدنيا دار أكدار وتعب ومشقات وهذه من منغصات الحياة الدنيا) إلى دار سعادة وحياة منعّمة وحرية كاملة، لكل نفس ما تشتهيه دون حاجز أو محظور، وقد أخرج الحاكم وابن أبي الدنيا والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تحفة المؤمن الموتُ».

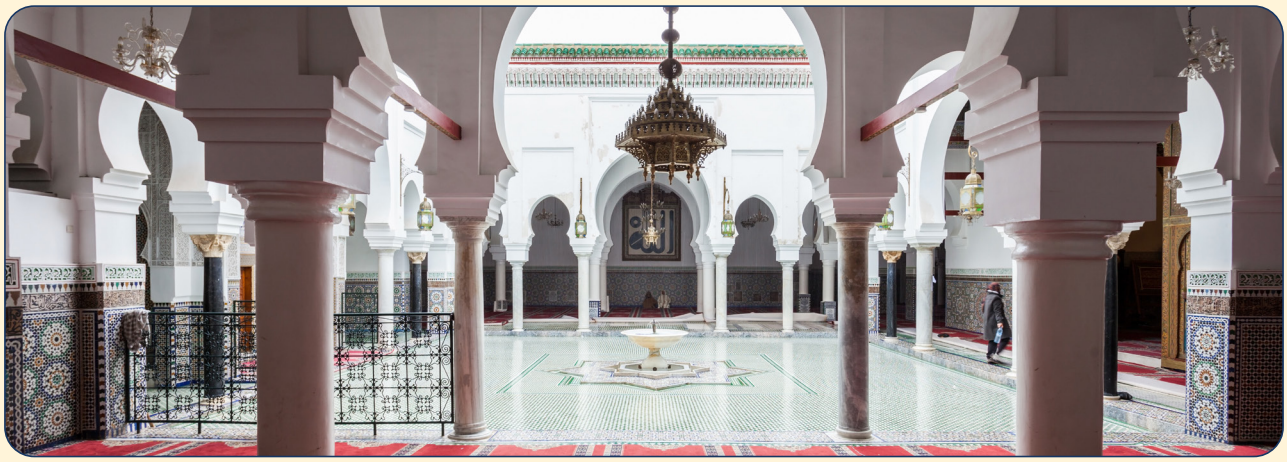

٥- يحب لقاء الله، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، فيجعل الذاكر استعداده للموت سبباً للتجهيز إلى الرحيل واستعداداً للقاء الله سبحانه.

٦- تهون عليه مصائب الدنيا وهمومها، قال عمر بن عبد العزيز لرجل: إذا كنت في شيء من أمر الدنيا قد غمك ونزل بك فإنه (أي ذكر الموت) يسهله عليك.

وقال الشاعر:

إذا اعتاد المرء خوض المنايا فأهونُ ما تمرّ به الوحول

والخوض هنا: (ذكره).

وقال آخر مشيراً إلى الدنيا:

طبعتْ على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقذار والأكدار

ذكر الموت ميزان يضبط الأمور، وترك ذكره هيامٌ في الدنيا وغفلة.

يذكرون الموت

١- كان عمر بن عبد العزيز (توفي ١٠١هـ) يجتمع كل ليلة مع الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون، يصفهم من يقول: حتى كأن بين أيديهم جنازة. ويذكرون الوقوف أمام الله سبحانه وتعالى، ومن تذكر أنه سيقف أمام الرب عز وجل يوم القيامة ليسأله: لِمَ فعلتَ كذا؟ من تذكر هذا لا يهنأ بلذة من لذات الحياة الدنيا.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: لأحد العلماء: عظني.

قال: لست أول خليفة يموت.

قال: زدني.

قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم عليه السلام إلا ذاق الموت، وقد جاء دورك يا عمر.

فبكى عمر بكاء شديداً.

٢- دخل رجل على الحسن البصري فقال له: إن رجالاً يذكروننا بالآخرة (أي بالموت والقبر وعذاب وأهوال يوم القيامة) حتى إن قلوبنا لتنخلع من شدة الخوف. (وكأنه يريد أن يعرف رأيه في هذه المواعظ).

فقال الحسن: هم خير لك ممن يؤمنونك، ثم لا تجد الأمان يوم القيامة، ومن يجعل لك الذكر والاستعداد خير لك ممن ينسّيك.

إذا خفت الآن أصبحت على استعداد لتلقي الأمان.

وكانت مجالس الحسن ذكر الجنة والنار وذكر الموت.

٣- سألت امرأة عائشة رضي الله عنها: كيف ألين قلبي؟ وقد شكت من قسوة قلبها.

قالت: أكثري من ذكر الموت يرق قلبك.

ففعلت المرأة ذلك فرقّ قلبها، وعادت تشكر السيدة عائشة رضي الله عنها.

٤- قال ابن مسعود ﷺ: السعيد من وُعظ بغيره، وذلك أنه يأخذ العبرة من الأموات، ويتعظ من آجالهم لما يرى من تجهيز الأموات ووضعهم في القبور.

أولئك الأذكياء

قال ابن عمر رضي الله عنهما: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم -عاشر عشرة- فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟

فقال: «أكثرهم ذكراً للموت وأشدهم استعداداً له، أولئك هم الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» (ابن أبي الدنيا وابن ماجه).

إن رأيت أو سمعت أو قرأت عن أموات فعُدْ نفسك كأحدهم!

علاج كره الموت

١- تذكر أيها الأخ ما حدث لمن هم في عمرك!

ألا تعرف أحداً مات؟

كتب أحد الحكماء إلى صديق له: يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده.

كم من شاب قوي آمن وقد فاجأه الموت، وكم ملك، وكم جار، وكم صاحب، وكم صغير، أو كبير. مريض أو صحيح. ماتوا.

قال الشاعر:

أين الأحبة والجيران ما فعلوا؟ أين الذين همُ كانوا لنا سكنا؟

سقاهم الموت كأساً غير صافية فصيّرتهم لأطباقِ الثرى رُهنا

وقال أبو البقاء الرندي:

وهذه الدنيا لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شاده شداد في إرم وأين ما ساسه في الفرس ساسان
أتى على الكل أمر لا مردّ له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

٢- تذكر كيفية موتهم أيها الأخ، وتخيل صفة غسلهم، وكيفية تكفينهم، وحملهم على تابوت، وإيصالهم إلى المقبرة ودفنهم؟

٣- تخيل ما يأتيك، كما قال الشاعر:

تزوّدْ للذي لا بد منه فإن الموتَ ميقات العباد

٤- زيارة كبار السن والمرضى في المستشفيات، ورؤية الذين من بلغوا من الكبر عتياً، وسماع القصص والمصائب من أفواههم والاعتبار من أحوالهم.

زُر المقبرة في الأسبوع مرة لتعرف نعمة الحياة، ثم ترى مآلها وعاقبتها.

آخر مسكن الدنيا

قال أحد الشعراء:

الموت كأس وكل الناس شاربُه يا ليت شعري وبعد الموت ما الدار؟

وأوجز من ذلك ومآله، ما قاله رسول الله ﷺ: «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار». (الترمذي).

وقال الشاعر:

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشرّ خاب بانيها

وكتب أحدهم على شاهدة قبره: نعم المسكن لمن أحسن.

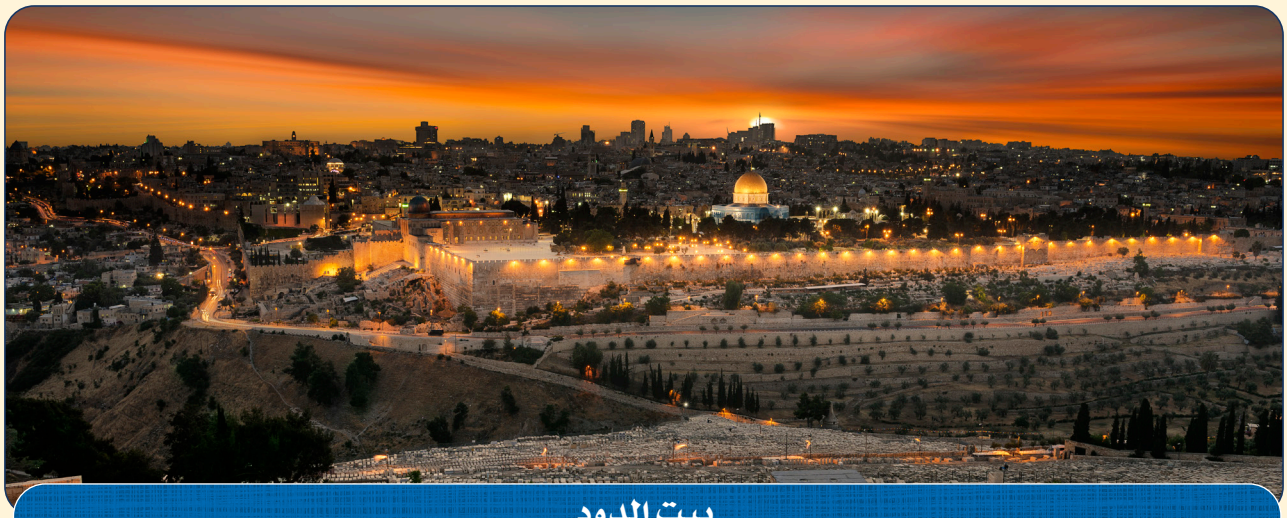

بيت الدود

أما رأى أحدكم (حيواناً ميتاً) في فلاة، أكله الدود وانتشر فيه، أما يدعو إلى التفكر؟!

قال لقمان لابنه: إنما أنت ثلاث:

روحك ليست لك، إنما هي لله سبحانه أمانة تُنفخ في بدنك مدة ثم تؤخذ حين انتهاء الأجل.

وبدنك إنما هو للدود، وما بقي يتحول تراباً.

وعملك هو لك فقط، وهو الذي ستحاسب عليه، وهو معك ولك ما أسلفت.

القبر صندوق العمل، فما خبأ فيه الإنسان يجده فيه حين يأتيه.

كل يوم

لا شيء يدعو إلى الاستعداد للآخرة مثل تذكر الموت، قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله سبحانه؟

فتذكر أنه لا يمر يوم ليس فيه أموات.

نظر رجل إلى دار يملكها فأعجبه حسنها! فبكى، وقال:

والله لولا الموت لكنت بك مسروراً.

وقال الحسن البصري: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات، فمن وجده منهم قد استوفى رزقه، وانقضى أجله قبض روحه، فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء، فيأخذ مَلَك الموت بعضادتي الباب فيقول: والله ما أكلت له رزقاً، ولا أفنيت له عمراً، ولا انتقصت له أجلاً، وإنّ لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقي منكم أحداً.

طول الأمل

والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

يرجع التغافل عن ذكر الموت إلى طول الأمل، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول:

إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح! (البخاري).

فاستغل الوقت حين تكون فيه صباحاً أو مساءً لعلك لا تدري متى تفقده.

أكثر الناس يأملون الأماني العريضة، وينسون الاستعداد الدائم، وخاصة ممن بلغوا الستين أو السبعين سنة، فهل نسوا كم إنسان جاءه الأجل بين أهله، أو في مسجده، أو على عمله؟!

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول لأصحابه: إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان: اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فإنه ينسي الآخرة.

المضحكات والمبكيات

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه وهو من المقربين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم: ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني:

- مؤمل دنيا والموت يطلبه.
- وغافل ليس يُغفل عنه.
- وضاحك ملء فيه، وهو لا يدري: أساخط عليه رب العالمين أم راض عنه؟

وثلاث مُبكيات:

- فراق الأحبة محمدٍ وحزبه.
- وهول المطلع.
- والوقوف بين يدي الله عز وجل، ولا أدري: إلى الجنة يأمر بي أم إلى النار؟!

الإنسان ابن لحظته، فليعش بالخير ولا يدري ما الله فاعل به بعد لحظة.

خديعة النفس

يغر الإنسان بطول الأمل لسببين:

١- الجهل: إذ يستبعد لنفسه أن يموت وهو شاب أو قوي.

٢- حب الدنيا: فليتذكر أن موضع سوط من الجنة خير من الدنيا وما فيها، فلا يشغل نفسه بشهوات الدنيا ولذاتها.

وللخلاص منهما يذكر المسلم ما أورده البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال:

«خطّ رسول الله ﷺ خطًّ مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منهن، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط، فقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به -أو قد أحاط به-، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخُطط الصغار: الأعراض، فإن أخطأه هذا، نهشه هذا، وإن أخطأه هذا، نهشه هذا». (البخاري والترمذي).

وقد أورد الحافظ ابن حجر في فتح الباري هذا الرسم:

شكل مرسوم

ملاحظة: لم ينسخ الرسم معي، وهو موجود في (فتح الباري) المجلد (١١) في باب الرقاق (في الأمل وطوله) الصفحة (٢٠٢/٢٠٣) وأخذ منه محقق جامع الأصول في أحاديث الرسول ورسمه في المجلد الأول الصفحة (٣٩٠).

يرجى الرسم في المطبوع أو إلغاؤه إن تعذر الرسم، والأرقام للدلالة على توضيح الرسم.

١- هذا الإنسان: النقطة الداخلة في الشكل.

٢- هذا أجله محيط به (الموت) المربع.

٣- وهذا هو خارج أمله (الآمال): الخط المستطيل المنفرد.

٤- وهذه الخطط الصغار: الأعراض (أمراض وحوادث).

يأتي الأجل ولا تنتهي الآمال، وكم من مؤمل لم يتحقق له أمل!

نعمة غيبية

وكان من فضل الله أن أخفى على العباد موعد الموت، قال مطرف بن عبد الله الشخير: لو علمت متى ذهاب أجلي، لخشيت على ذهاب عقلي.

ويؤكد هذا المعنى قول الحسن البصري -رحمه الله-: السهو والأمل نعمتان عظيمتان على ابن آدم، ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق، ولجلسوا في بيوتهم يبكون مذهولين خوفاً من الموت.

المبادرة

فليعتبر أن كل يوم وجد فيه قد يكون آخر يوم، فإن التسويف من حيل الشيطان، فلو قيل للإنسان: إن الموت غداً، ماذا يفعل؟

أمَا يستغل كل لحظة في الصالحات، ويدعو، ويؤدي ويصل الحقوق؟!

يقول عليه الصلاة والسلام: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ». (البخاري والترمذي).

قال يزيد الرقاشي: بينما جبار من الجبابرة من بني إسرائيل جالس في منزله، قد خلا ببعض أهله، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته، فثار إليه فزعاً غاضباً، فقال له: من أنت؟ ومن أدخلك داري؟ فقال: أما الذي أدخلني الدار فربها، وأما أنا فالذي لا يمنع مني الحجاب، ولا أستأذن على الملوك، ولا أخاف صولة المتسلطين، ولا يمتنع مني كل جبار عنيد، ولا شيطان مريد.

فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكباً على وجهه، ثم رفع رأسه إليه مستجدياً متذللاً له، فقال له: أنت إذن مَلَك الموت!

قال: أنا هو.

قال: فهل أنت ممهلي حتى أحدث عهداً؟

قال: هيهات، انقطعت مدتك، وانقضت أنفاسك، ونفدت ساعاتك، فليس إلى تأخيرك سبيل!

قال: فإلى أين تذهب بي؟

قال: إلى عملك الذي قدمته، وإلى بيتك الذي مهدته.

قال: فإني لم أقدم عملاً صالحاً، ولم أمهد بيتاً حسناً!

قال: فإلى لظى نزاعة للشوى.

ثم قبض روحه، فسقط ميتاً بين أهله، فمن بين صارخ وباك.

قال الرقاشي عنهم: لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر.

إلى الغنائم

«اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل عملك، وحياتك قبل موتك». (ابن أبي الدنيا).

وإن سلعة الله غالية، لا تكون بالراحة أو بالكسل، أو بالإكثار من الشهوات، وإنما بالطاعة، والجهد، قال عليه الصلاة والسلام: من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله هي الجنة (الترمذي).

أدلج: السير من أول الليل، والمراد به: إن من سار من أول الليل كان جديراً ببلوغ المنزل، وهذا كناية عن التشمير والجد في أول الأمر.

العزيمة الصادقة

تعني عدم التأخر والمبادرة الفورية لتنفيذ العمل الصالح فوراً، فتصدق مستعجلاً، وأدّ النوافل في وقتها، ولا تدع فرصة لمناقشة النفس أو الشيطان، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة» (أبو داود).

والتؤدة تعني: التأني وعدم الاستعجال في كل أمر، إلا في أمور الآخرة، وذلك حتى لا تضيع الفرصة.

لا تتأخر عن فعل الخير، صدقة، نافلة، سعياً، قولاً، لأن النَفَس إذا توقف انتهى كل شيء.

يستعجل صاحب العزيمة إلى العمل الصالح مكتسباً الفرصة السانحة.

النفس الأخير

لك المبادرة، المبادرة فقط، وللحسن البصري كلمة عجيبة في هذا الأمر، قال: فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله سبحانه وتعالى.

وقد فسّر قوله تعالى: ﴿إنما نعد لهم عداً﴾ (مريم:٨٤)، أي: الأنفاس تعدّ وهي مجهولة لصاحبها ولا يعلم آخرها، ومن نظر إلى نَفَسه وبكى على ذنوبه فقد حاسب نفسه، وكلما زاد عمرك يوماً فزد في السرعة، فالسباق يكون أسرع ما يكون في آخره.

قال أبو موسى الأشعري: لما اقترب موته في مرض الاحتضار قد اجتهد اجتهاداً شديداً، فقيل له: ألّا أمسكت (أرفقت) بنفسك!

قال: إن الخيل إذا أرسلت، فقاربت السباق تسرع بشدة.

وظل أبو موسى على اجتهاده إلى أن مات رضي الله عنه.

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (الحديد: من الآية١٤).

فتنتم أنفسكم: باللذات والشهوات، وتربصتم: أجّلتم التوبة، وارتبتم: لم تكونوا متيقنين بأن الموت آت إليكم وأنتم غير مستعدين، وغرتكم الأماني، حتى جاء أمر الله: الموت، وغركم بالله الغرور: هو الشيطان خدعكم.

صور من الوفاة

١- وفاة الرسول ﷺ

اقرأ السيرة (قصة وفاة النبي ﷺ) وكيف أقبل عليه الموت وهو في ألم شديد؟! وقد قال لعائشة رضي الله عنها: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات». (البخاري ومسلم والترمذي والنسائي).

فليس أحد أكرم على الله منه، فهو رسوله وحبيبه، فهل أمهله ساعة عند انقضاء مدته، وهل أخره لحظة بعد حضور منيته؟

أكرم الخلق ﷺ قد عانى من سكرات الموت، ولم يُمهلْ وقتاً إلى قدوم الأجل.

٢- وفاة الصديق رضي الله عنه

بدأت عائشة رضي الله عنها تبكي، وقد حضرت أباها الوفاة، فتمثلت بقول الشاعر:

لعمركَ ما يُغني الثراء عن الفتى إذا حشرجتْ يوماً وضاق بها الصدر

وهل ينفع الإنسان المال والثروات حين يضيق الصدر في لحظات خروج الروح منه؟

فقال: ليس هكذا يا عائشة! ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:١٩).

وصيته -رضي الله عنه- لعمر وقد استخلفه، ومن جملة ما قال له:

فلا يكنْ غائب أحبَّ إليك من الموت! ولا بد لك منه! لا تكره الموت واجعله حبيباً لك إذا كنت مستعداً له، فيكون هو حبيباً لك، وإذا ضيعت وصيتي نسيت وتغافلت عن الآخرة، فلا يكون غائباً أكره إليك من الموت ولا بد لك منه، ولست بمعجزه. أي لا تفلت منه.

الصدّيق في لحظاته الأخيرة يعيش بمعنى الموت ويوصي الفاروق.

٣- وفاة الفاروق رضي الله عنه

لما طُعن عمر -رضي الله عنه- جاؤوا يسقونه، فخرج الماء من جرحه، وسقوه الحليب، فخرج الحليب من جرحه، فقال له الطبيب: استخلف من بعدك!

فقال لابنه عبد الله رضي الله عنه وكان قد أوسد خده على فخذه:

ارفع رأسي وضَعْه على الأرض.

فأخذ يبكي ويقول: يا ليتني أخرج منها (من الدنيا أو من الخلافة والمسؤولية) كفافاً لا لي، ولا عليّ! ليت حسناتي تساوي سيئاتي، والله لو نودي في أهل المحشر: كلكم إلى الجنة إلا واحداً لخشيت أن يكون المستثنى عمر.

يتمنى عمر رضي الله عنه أن تستوي حسناته وسيئاته فلا يحاسب من خشيته رضي الله عنه.

خشيتهم وخوفهم

أين نحن ممن خشيتهم وخوفهم، وتذكرهم الدائم؟ فهل نحن أكرم على الله منهم؟ فلماذا نغفل؟ ولماذا لا نؤدي:

١- قيام الليل وذكر الموت

فقد ورد عن أبي كعب رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام، فقال: «أيها الناس، اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة (النفخة الأولى التي تموت لها الخلائق) تتبعها الرادفة (النفخة الثانية التي يحيون بها يوم القيامة)، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه». (الترمذي).

فقد كان هكذا يربي الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يقوموا ليلاً ويتذكروا الموت.

٢- ذكر الآخرة من زيارة القبور

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ: كلما كان ليلتي منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع ويقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» (مقبرة أهل المدينة). (مسلم والنسائي).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرّ رسول الله ﷺ بقبور أهل المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، وقال: «السلام عليكم يا أهل القبور، ويغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن في الأثر».

يزور المقبرة في الليل وفي النهار، وأين نحن من زيارتها في النهار؟!

زيارة القبور لتذكر الآخرة، وحضور مجالس العزاء لتذكرة الموت، لا بد أن يأتي يوم -آجلاً أو عاجلاً- ويدرك الموت أحدنا، فلنلتزم ما جاء في السنة من زيارة القبور أو مجالس العزاء، بالعبرة للأحياء، والدعاء للأموات.

فلا تكن غافلاً أيها الأخ الكريم في زيارة القبور أو مجالس العزاء، فأية غفلة أن يكون أحدهم يضحك بصوت عالٍ في هذين المكانين! بل للتفكر والنظر في العاقبة القادمة لك ولكل إنسان، ولا يلهك التكاثر في الجمع، جمع المال والأمتعة، ومتاع الدنيا ،ولكن زر القبور على فتراتٍ فهل أخذوا شيئاً معهم؟!

٣- تمني الموت

ولا تعني زيارة القبور تمني الموت، فقد ورد النهي من رسول الله ﷺ فقال: «لا يتمنّين أحدكم الموت، إما محسناً فلعله يزداد، وإما مسيئاً فيستعتب». (البخاري والنسائي).

يستعتب: يرجع إلى ما يرضي العاتب (كالمذنب يرجع إلى الغفار).

علّل الحديث أن زيادة العمر فرصة من الاستزادة من أبواب الخير والطاعات، ودعوة إلى التوبة والرجوع عن التقصير بحق الله سبحانه، فلعله يتوب.

وكذلك لا يطلب الموت (لا يتمنى) لضر أصاب الإنسان من ضيق رزق أو بلاء أو محنة، فإن كان لا بد طالباً للموت كما يقول أحدهم:

ألا موت يُباع ألا حِمامٌ وأبذلُ فيه ما ملكتْ يميني

فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي. (البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأبو داود).

نسأل الله سبحانه حسن الخاتمة، ونسأله مولانا عيشة كريمة وموتة كريمة.

اللهم اجعل خير زماننا آخره، وخير أيامنا يوم لقائك.

وفكّر في هذه الآية الكريمة وأمثالها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ❖ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ❖ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون:٩-١١)

ادع الله بحسن الخاتمة، وقبول الطاعة، وليكن أسوتك الرسول ﷺ والصحب الكرام في الحياة قبل ساعة الموت.

الفصل الرابع

المحبة

الحمد لله الذي خلق الخلق، وأمرهم بمحبته، وحضّهم على ولايته، فمن اهتدى فله الجنة والرضوان، ورؤية المولى زيادته، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: من الآية٢٦) ومن ضلّ وغوى، واتبع نفسه وهواها، فقد أشقى معيشته، وأوردَ ذاته شر مواردها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ (يونس: من الآية٢٧)

والصلاة والسلام على حبيب رب العالمين محمد الهادي الأمين، أحبّ الخير للناس أجمعين، وأراد هدايتهم، وقد تجسدت فيه مظاهر الحب في الله والبغض في الله، فكان لا يغضب إلا إذا انتُهكت حرمات الله، وكان يدني المؤمنين ويلقاهم بالحب، وعلى آله وأصحابه منارات الهدى والدين، والذين نالوا وفازوا بالرضا لأنهم أحبوا الله ورسوله، وعلى من تبعهم بإحسان إلى قيام يوم الدين. وبعد:

الحب

ميل الطبع إلى الشيء، وتعريفه: لا يُحدُّ بحد، ووجوده تعريفٌ له.

وهو أمر مقدر على كل شيء سوى الجمادات، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يدركه.

البغض

نفرة الطبع عن المؤلم المتعب

الحب أمر فطري لا يُعرَّف، ووجوده دليلُه، والبغض نفرة من شيء يكرهه.

كل إنسان يحب

كثيرة هي أنواع الحب، ولكل حبيبه، وشتان بين حبيب وحبيب! قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (البقرة: من الآية١٦٥).

وقال الشاعر:

كل يغني على ليلاه متخذاً ليلى من الناس أو ليلى من الخشب

ويُعرف الحبيب بمحبوبه، وهذه بعض أنواع الحب:

١- محبة الله

قد أجمعت الأمة على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض ولا يستحق اسم (المؤمن) من لم يحب الله سبحانه، فقد ورد في الآية الكريمة: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ (المائدة:٥٤).

وقد وصف القرآن المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ (البقرة: من الآية١٦٥)، وهذا أعظم الحب، وهو دليل على إثبات الحب، وإثبات التفاوت فيه.

وورد في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما». (البخاري ومسلم والترمذي والنسائي).

هذا أمر رسول الله ﷺ بالمحبة، بمحبة الله، فقال: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله إياي». (الترمذي).

٢- محبة الرسول ﷺ

قد أقسم الرسول ﷺ على أن محبته من الإيمان فقال: «والذي نفسي بيده: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده» (البخاري والنسائي).

وفي رواية للنسائي: حتى أكون أحب إليه من ماله وأهله والناس أجمعين.

ولا يكتمل الإيمان إلا بمحبته ﷺ، قال عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: «لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي، فقال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنك الآن والله لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال له النبي ﷺ: الآن يا عمر». (البخاري).

«عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك أحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أجد حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعتَ مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك».

فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء:٦٩)

٣- محبة الشهوات

يحب الإنسان -وهذا الحب من فطرته التي فطر الله الخلائق عليها- متاع الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ (آل عمران:١٤).

وقال عليه الصلاة والسلام: «حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء». (النسائي).

ميل فطري في الطبع السليم إلى المتاع، وجمال العقل أعظم في إدراك محبة الله.

أمران مهمان

١- أن لا يؤدي حب الشهوات السابقة إلى التعامي عن القبائح والمساوئ لتلك الأشياء، أو تصرفه عن المفروض والواجبات الملقاة عليه.

٢- وأن يكون هذا الحب في الله، وينوي بمحبة تلك الأشياء استخدامها في محبة الله سبحانه وتعالى، وطاعة رسوله، ولا يميل كل الميل إليها.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:٢٤)

٤- محبة الأنداد

لكن كثيراً من الناس يتخذون من الله أنداداً يحبونهم وقد نزعوا حب الله من قلوبهم -والعياذ بالله- فكيف بهم إذا تخاصموا، وكيف يكون الخصام بين المحبين والمحبوبين في مشهد التبرؤ يوم القيامة، تقول الآية عنهم: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ (البقرة: من الآية ١٦٧).

وهذه المحبة ندّ في محبة الله لا في الخلق، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا أنداداً من دون الله في الحب والتعظيم.

لا يحب المؤمن شيئاً حبه لله، لا نفسه ولا سواها، ولا أية قيمة في الأرض، ولا أشياء، فهو أشد حباً لله.

أسباب المحبة

١- حب النفس

وذلك فطرة من الله سبحانه وتعالى في الإنسان، أن يحب بقاءه واستمراره في الوجود، كما يحب سلامة أعضائه، ويحب أن يكون كاملاً، فيحرص على تحسين أحواله.

كما أنه يحب كل من يساعده على الوجود، وعلى تثبيت وجوده، فإذا أحب إنسان إنساناً ما ثم وجد أن هذا يؤذيه كرهه، كما أن المرأة إن تزوجت تحب زوجها ما دام يحسن إليها، فإذا آذاها وضربها كرهته.

حب الذات أول سبب للمحبة، والمكروه من يسيء إلى الذات.

٢- حب الإحسان

وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبدْ قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

ولهذا من الفطرة أن يحب الإنسان من واساه ولاطفه وأمدّه بنصرته، وساعده في الحياة.

الإنسان يحب من أحسن إليه، وهذه فطرة مودعة فيه.

٣- حب الأخلاق الحسنة

وهذا موجود في الفطرة، فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل رفيق بالناس فتجد في قلبك ميلاً إليه ومحبة له، كما هو بالعكس عن ملك ظالم فإنك تبغضه، مع أن العدل من ذلك الملك لم يصب الإنسان المحب لذاته، وكذلك الظلم لم ينله منه شيء.

حب الأخلاق الفاضلة ولو لم تصل إلى الإنسان آثارها فطرة محبوبة.

٤- حب الجمال

كذلك من الفطرة (التقدير الإلهي) أن تحب النفس البشرية الصورة الجميلة، والرائحة الزكية، والطير الزاهي الألوان، والمنظر الحسن، والماء والشجر.

والجمال قسمان:

- حسي ظاهر: -كما سبق ذكره- تراه العين أو تسمعه الأذن (يدرك الجمال بالحواس).
- جمال باطن كالعلم والسيرة الحسنة، والقدرة والاستقامة، (ويدرك بالضمير والوجدان).

ولنضرب أمثلة على الجمال الباطن:

١- جمال السيرة: حين تسمع بسيرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وما كان منه من صدقه، ودعوته، وحبه للرسول ﷺ، فتحبه وتبجله، وكذلك غيره من الصحابة والصديقين.

٢- جمال العلم: ومن طبيعة النفس البشرية حب العلماء، فالشافعي وغيره محبوب، حتى إن النفس لتحب العلماء في كل الفنون، ولو كانوا غير مسلمين.

- جمال القدرة: يحب الإنسان القدرة ويكره العجز، فلذلك يحب الذين أظهروا البطولات، والمسلم يحب خالد بن الوليد رضي الله عنه (والقواد المسلمين) لبطولاته ولجرأته على أعدائه، فنحن نحب من له القدرة الجسدية العظيمة، والشجاعة المعنوية.
- جمال الاستقامة: يحب المرء كل من استقام في تعامله مع البشر، فلا كذب، ولا غش ولا احتيال على أحد، حتى لو كان من غير المسلمين، وبالعكس فإن الإنسان يكره من طبعه الكذب والخداع.

حب الجمال الظاهري أو الباطني رغبة ملحة في القلب الإنساني مودعة فيه.

٥- سبب خفي أو وجود المناسبة الخفية

وهو وجود نوع خفي في تآلف القلوب، ورابطة خفية بين المحب والحبيب، وقد ورد في الحديث أن الرسول ﷺ قال: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». (البخاري ومسلم وأبو داود).

إن الأجساد التي فيها الأرواح تلتقي في الدنيا، فتأتلف، وتختلف على حسب ما جعلت عليه من التشاكل أو التنافر في بدء الخلق، فأهل العلم يحبون مجالسة أهل العلم، وكذلك أهل الحِرف يحبون أهل الحرف، وهكذا.

قدمت امرأة مزّاحة (تكثر المزح) من أهالي مكة إلى المدينة، فنزلت على نظيرةٍ لها (مزّاحة مثلها) في المدينة، فقالت عائشة رضي الله عنها: صدق حِبي رسول الله ﷺ، وذكرت الحديث السابق: (الأرواح جنود مجندة.)

سبب خفي يدعو إلى تآلف الأرواح، وقد يكون سبباً ظاهرياً كالمهنة أو الهواية أو الطباع.

أكثر من سبب

كلما تجمع أكثر من سبب زادت المحبة، فلو كان لإنسان ولد، وكان هذا الولد صاحب أخلاق حسنة، وهو جميل الصورة، بارّاً به، لكان هذا الولد أحبّ إلى والده أكثر من غيره، وكلما اجتمعت أسباب زادت درجة المحبة، وحاز السبقُ في المحبة لمن هو فيه أكثر من سبب.

محبة الله سبحانه

ولما تقدم، فإن كل الأسباب التي نعرفها أو نجهلها تدعو إلى محبة الله سبحانه وتعالى أعظم من محبة آخر غيره.

أولاً: فالإنسان الذي يعلم أن الله سبحانه أوجد (خلق) ذاته بعد أن كان عدماً، وفضّل عليه بإيجاده، وأعطاه دوام وجوده من طعام وشراب وغيره، لذلك يقدم حب الله على كل شيء سواه.

فكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه، ولا يحب ربه؟!

من عرف نفسه عرف ربه وأحبه.

وذكر ابن القيم أسباب المحبة - محبة الله سبحانه- في عشرة أسباب:

١- قراءة القرآن بتدبر وتفهم.
٢- التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.
٣- ذكر الله باللسان والقلب دائماً.
٤- إيثار محبة الله على محبة غيره.
٥- استذكار أسماء الله وصفاته في القلب.
٦- شكر الله على بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.
٧- الذل والافتقار والانكسار لله سبحانه.
٨- التفكر في معاني القرآن عند قراءته والاستغفار والتوبة.
٩- مجالسة المحبين الصادقين وأخذ النافع من كلامهم.
١٠- الابتعاد عن الأسباب المبعدة عن الله.

ثانياً: وإذا عرف الإنسان حق المعرفة أن المحسن إليه هو الله سبحانه وتعالى، وأنواع إحسانه لا يحيط به حصر، قال تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (إبراهيم:٣٤، والنحل:١٨).

لذلك يحب الله سبحانه وتعالى محبة أعظم من أي محسن آخر له بشيء من المتاع، والمحبة قربة من أفضل القُرب إلى الله.

المحسن الذي لا يريد منك إلا الشكر هو الله سبحانه، ويحسن حتى للذين لا يشكرون.

ثالثاً: ومن علم بأن الله سبحانه هو المتفضل على جميع أصناف الخلائق، وأحسن كل شيء خلقه، وأمده بما يهيئ وجوده، وأنه سبحانه خالق المحسن والإحسان، فإنه عند ذلك يحب الله أشد حباً ممن هم على الأخلاق والإحسان.

لله الأسماء الحسنى وصفاته الكاملة وهو الأولى بالمحبة.

رابعاً: ومن أيقن أن الله سبحانه وتعالى جميل يحب الجمال (مسلم وأبو داود والترمذي)، وأنه مما يرى من جمال الخلق هو من صنع الله الذي أتقن كل شيء، وأحسن كل شيء خلقه، علم أنه سبحانه وحده هو الكمال، وأنه هو الجمال المطلق الذي لا يعتريه نقص فيحبه، ويحب لقاءه، والنظر إلى وجهه الكريم في الجنة، إذ قدر الله سبحانه وتعالى ألا يراه أحد في هذه الحياة الدنيا.

خامساً: أما الجمال الباطني فإن نظام الوجود وترتيبه يدلان على الله سبحانه، وعلى شأنه مع الخلق، وهو كل يوم في شأن، وإن علم الأولين والآخرين لا شيء يذكر إن قورن بعلمه ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الإسراء: من الآية٨٥).

والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وإن الله تعالى يقول في حق أعظم ملوك الأرض ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الكهف: من الآية٨٤).

وأنه هو القادر على كل شيء.

وأن الله لا يقبل إلا ما كان طيباً، ويأمر رسوله والمؤمنين بالاستقامة فكان ينبغي للعبد أن يحب الله سبحانه أعظم ممن أحبهم في هذا السبب.

هو المستحق لكمال المحبة، فكل سبب داعٍ إلى ذلك الحب.

علامات المحبة

إن أجل درجات المحبة وأعلاها هي معرفة الله وحبه، وهناك علامات تدل على حب الله، فمنها:

١- أن يحب لقاء الله فيقدم نفسه وما يملك للقائه

وهذه قصة بديعة من حياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين في محبة لقاء الله سبحانه ما أخرجه ابن إسحاق قال:

حدث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ابنه فقال: إن عبد الله بن جحش رضي الله عنه قال يوم أحد وهو يدعو الله سبحانه قبل أن تبدأ المعركة، وقد خلا بناحية بعيداً عن أعين الناس فقال: يا ربي إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غداً فلقيني رجل شديد، بأسه شديد، يقاتلني وأقاتله، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، ويبقر بطني، وإذا لقيتك غداً، قلتَ يا رب: يا عبد الله ما جدع أنفك وأذنك؟

فأقول: فيك يا رب، وفي رسولك.

فتقول: صدقت.

وقال سعد: رأيته آخر النهار مقتولاً وإن أنفه وأذنه معلقتان على أرض غزوة أحد رضي الله عنه، فصدق الله في النية والعمل فصدقه الله سبحانه وتعالى، وهو من شدة حبه لله يستعجل لقاءه بحب الموت على الصورة التي طلبها رضي الله عنه.

وهنا سؤال

الذي لا يحب الموت هل هو لا يحب الله؟

الجواب على هذا من ناحيتين بعد النظر والتأمل والتفكر.

أولاً: لماذا يكره الإنسان الموت؟

إن كان يكرهه بسبب حب الدنيا والأهل والمال والاولاد والمنصب ومتاع الدنيا وقد تعود على حب هذه الأمور إلى درجة أنه يكره أن يفارقها حتى ولو كان في مفارقتها أنس بالله ولقائه، فهذا لا شك نقص في الحب الكامل لله رب العالمين، وحبه لله فيه ضعف وفيه نقص، وهذا هو السبب الأول لكراهية الموت.

ثانياً: يكره الإنسان المسلم الموت لأنه يكره أن يلقى الله على حال المعصية لذلك تراه ربما يتمنى أن يتأخر موته ليتوب وليكثر من الطاعة والاستغفار والإنابة، ونحن من هذا الصنف الأخير -إن شاء الله- يقول الله في الحديث القدسي: «وما ترددت عن شيء ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته» (البخاري).

ولو ضربت مثلاً من أحوال البشر: إذا كان للإنسان محبوب، وقد بلغه أنه قادم لزيارته، فإنه يتمنى لو

يتأخر هذا المحبوب قليلاً حتى يجهز البيت ويجهز نفسه استعداداً للقائه ليكون اللقاء ليس فيه ما يكدر صفو اللقاء.

فهو لا يكره اللقاء بل يريد وقتاً للاستعداد الجيد لهذا اللقاء.

ومن العلامة على هذا السبب كثرة الطاعة والانشغال بالتوبة.

لقاء الله أحب إلى المحب من لقاء الأهل والمال والمنصب ومتاع الدنيا.

٢- يؤثر (يفضل) ما يحبه الله على ما يحبه هو

وهذه درجة عالية وقد قال تعالى في وصف الأنصار: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: من الآية)٩.

قصة عظيمة في الإكرام:

قدم أنصاري وزوجته الطعامَ الذي لا يملكان غيره إلى ضيف النبي ﷺ وناما هما وأولادهما جياعاً من أجل إكرام الضيف، وهي مشهورة جداً.

فقد أخرج (مسلم والبخاري والنسائي) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود (جائع كثيراً). فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء! ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك. فقال عليه الصلاة والسلام: من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا قوت صبياني. قال: فعلِّليهم بشيء، فإذا أرادوا العشاء فنوّميهم، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل. قال: فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين (جائعين)، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ، فقال: قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما». وزاد في رواية: فنزلت هذه الآية: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: من الآية٩)، أي أشد الحاجة ومع ذلك آثروا غيرهم لله سبحانه.

٣- يطيعه فيما يحب

فيحب قراءة القرآن، والصلاة، والصيام، والذكر والجهاد.

قيل: علامة حب الله حبُّ القرآن.

وعلامة حب الله وحب القرآن حبُّ الرسول ﷺ.

وعلامة حب رسول الله ﷺ حبُّ سنته.

وعلامة حب سنة الرسول ﷺ حب الآخرة.

وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا.

وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها شيئاً إلا زاداً يبلغه إلى الآخرة.

وأكبر شاهد على تلك المحبة اتباع الرسول ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾(آل عمران: من الآية٣١).

كل علامة سابقة تدل على علامة أخرى لاحقة في طريق المحبة. محبة الله سبحانه

٤- ترك المعاصي

قال الشاعر:

تعصي الإله وتظهر حبه ... ذاك لعمري في الفعال بديع

لو كنت حقاً صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

والذي يحب الله سبحانَه يجتنب المناهي حتى لا يغضب الله عز وجل، ولا يحب ما لا يحبه الله، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: من الآية ٢٠٥).

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: من الآية ٥٧).

وقال جل جلاله: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد: من الآية٢٣).

ويبتعد المسلم المحب لله عن كل صفة لا يحبها الله سبحانه كلّ البعد، وعن كل عدو لله لا يحب الله ولا شرعه.

المعصية تنفي كمال المحبة:

المؤمن يحب الله سبحانه ويمكن في نفس الوقت أن يعصيه، فالمعصية لا تنفي المحبة، ولكن تنفي كمالها، وإن القلب المحب ليستشعر عظمة الله فإذا ضعف الاستشعار ربما أقدم صاحبه على المعصية.

فقد روي أن رجلاً في عهد رسول الله ﷺ وكان يضحك رسول الله ﷺ أحياناً، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشرب، فأتي به يوماً، فأمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به!

فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله». (البخاري).

وفي رواية: قولوا: اللهم ارحمه، اللهم تب عليه.

والله سبحانه يفرح أشد فرح يعلمه العباد بتوبة عبده إليه.

يحب الله سبحانه وتعالى أعظم حب -ولله المثل الأعلى- من يعود إليه بالتوبة، وإن الله يحب التوابين.

٥- دوام الذكر

من أحب شيئاً أكثر ذكره، وهذا الذكر من طبيعة الحب، وأكبر شاهد على محبة الله ذكره بالقلب واللسان، وقد وصل رسول الله ﷺ إلى منتهى المحبة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن عينيّ تنامان، ولا ينام قلبي». (البخاري ومسلم والترمذي).

معنى لطيف في الذكر:

ذكر الله سبحانه عن يعقوب عليه السلام في معرض مدحه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ (يوسف: من الآية٦٨)، قال العلماء: إن ذكر الله لازم على لسانه، لا ينطق إلا بذكر الله حتى إنه ذكره سبحانه في حبه الشديد لابنه يوسف عليه السلام.

قال أحد المحبين:

ذكرتك لا أني نسيتك لحظة وأيسر ما في الذكر ذكر لساني

لا يطمئن قلب المحب إلا بذكر الله سبحانه وتعالى.

وقال يحيى بن معاذ:

إلهي إني مقيم بفنائك، مشغول بثنائك، صغيراً أخذتني إليك، وأمكنتني من لطفك، وقلبتني في الأعمال ستراً وتوبة وزهداً وشوقاً ورضاً وحباً، تسقيني من حياضك، ولما طرّ شاربي (أصبح شاباً) فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً وقد اعتدت هذا منك صغيراً؟! فلي ما بقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة، لأني محب بحبيبه مشغوف.

٦- محبة الخلوة

أن يكون المحب وحده مع الله سبحانه، ومناجاته له، يحب ألا يعكر صفوه أحد، يتقرب إلى الله في خلوته، يناجيه ويدعو، ويستغل كل فترة خلوةً ليتقرب إلى الله، قال أحد الصالحين وهو مطرف بن أبي بكر رحمه الله: المحب لا يسأم من حبيبه.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨) اطمئنان القلوب إذا هشت إليه فاستأنست به.

وقد ورد في الحديث أن من يخلو مع ربه أحد السبعة الذين يظلهم الله بظل عرشه: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه». (البخاري ومسلم والموطأ والترمذي والنسائي).

وقد كان من دعاء داود عليه السلام: اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك. (الترمذي).

وأحب خلوة مع الله يكون في جوف الليل.

٧- محبة أحباب الله

قال تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ (المائدة:٥٤).

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: من الآية١٤٦).

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: من الآية١٣٤).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: من الآية٢٢٢).

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصف:٤)

وقال جل جلاله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: من الآية ٧٦)

يحب المسلم من أحبه الله، ويكره من كرهه سبحانه.

٨- الخوف من إعراض الحبيب

يملأ قلبَ المحب الخوفُ من إعراض الله -سبحانه وتعالى- عنه أو يصدّه فلا يلتفت إليه، وأشد الخوف أن يُمنع من رؤيته -سبحانه وتعالى- يوم القيامة، أو ألا يكلمه -سبحانه- أو ينظر إليه بعين الرضا، لأن هذه من علامات غضبه على غير المؤمنين.

قال تعالى عن الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين:١٥).

فهو سبحانه لا يكلم الكفار يوم القيامة ولا ينظر إليهم.

بينما المؤمن مشاعر المحبة تملأ قلبه، وهيبة أن يعرض الجليل عنه.

لذة النظر إلى وجهه الكريم:

يكشف الحجاب يوم القيامة فينظرون إليه، وما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليه من النظر، ولا أقرَّ لأعينهم منه، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٢،٢٣).

وفي الحديث: إذا دخل أهل الجنة الجنةَ، يقول: تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة؟ وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى، وزاد في رواية: ثم تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: من الآية٢٦) (مسلم والترمذي).

يكاد المؤمن من يرى ربه في الجنة أن ينسى كل نعيمها.

٩- عدم الأسف على شيء

لا يأسف المحب على شيء من حطام الدنيا وإن فاته شيء من إرم الدنيا لا يأخذ من فكره شيئاً، ولكنه يأسف إن مضت عليه ساعة بدون ذكر الله، يقول: ربي لا تعاتبني ولا تؤاخذني، ولا تجعل ذنبي سبباً للغفلة عنك وعن ذكرك.

١٠- لذة الطاعة

وربما كانت هذه العلامة من أعظم العلامات على محبة الله سبحانه، وذلك حين يجد لذة الطاعة كما هي في كلمة جميلة للمصطفى صلى الله عليه وسلم: «أرحنا بها يا بلال» (أبو داود).

فقد كان اشتغاله بالصلاة راحة له، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يعد غير الصلاة من الأعمال الدنيوية تعباً، فكان يستريح بالصلاة لما فيها من مناجاة الله سبحانه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «وجعلت قرة عيني في الصلاة».

فلا تستشعر أيها الأخ بالملل في أداء الطاعات، بل لتكن نفسك نشيطة، بل تستشعر بالراحة لقدومها أو حين أدائها.

ما أقرب الراحة والتلذذ في الطاعة من قرة العين.

التفاوت في المحبة

إن المؤمنين مشتركون في أصل الحب، ولكنهم متفاوتون في المحبة، والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة، إذ لا نجد المحبة بحق إلا لله سبحانه، ومن يحب المحبوب يحب من يحبه ويحب ما يحبه، ويكره من يكرهه ويكره ما يكرهه.

فأصل المحبة لله ثم تأتي محبة الرسول والرسل والصالحين.

ولنقرب بهذا الكلام درجات المحبة، وثمارها بهذا التشبيه فإن نور المحبة كالشمس للمقربين.

ونور المحبة كالبدر في قلوب الأبرار أهل اليمين.

ونور المحبة كالنجم في قلوب عامة المؤمنين.

تتفاوت المحبة بقدر معرفة الله سبحانه وتعالى، والناس درجات فيها.

من ثمرات المحبة

إن من تحققت فيه هذه المعاني الثلاثة هو الذي يعرف المحبة الأصلية، ويذوق طعم ثمارها:

١- أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما

فالمحبة بحق لا تكون بحق إلا لله سبحانه وتعالى، ومن ثمار هذه المحبة محبة الرسول ﷺ لأنه مرسل يحمل رسالة المحبوب، وهي درجة عالية جداً، وهي من أصل المحبة حقاً، فإذا لم يستشعر الإنسان هذه الدرجة لا يجد لذة الإيمان، وذلك إذا قارن بلذة الطعام والشراب، أو بلذة ملاعبة

الأهل والأولاد، فأي لذة تقدمها إن شغلوك عن الطاعة وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ﴾ (التغابن: من الآية ١٤).

٢- أن لا يحب الإنسان إنساناً إلا لله سبحانه وتعالى

أي أنه يحبه لأنه مطيع لله، محب له، وذلك الأصل في العلاقة مع أي إنسان آخر لا لشيء دنيوي آخر، «عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي ﷺ فمرّ رجل، فقال: يا رسول الله، إني لأحب هذا. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أعلمتَه؟ قال: لا. قال: فأعلمه. فلحقه، فقال: إني أحبك في الله. قال: أحبّك الله الذي أحببتني له». (أبو داود).

٣- أن يكره أن يعود في الكفر

يبغض أن يعود إلى الكفر، لأن الكفر يبغضه الله سبحانه ولأن الكفر فيه طرد من رحمة الله، فيحذر المؤمن أن يعود إلى غضب الله، بل يؤثر أن يقذف في النار ولا يعود إلى الكفر.

ويشير إلى الثمار الثلاثة السابقة قوله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود إلى الكفر -بعد أن أنقذه منه- كما يكره أن يلقى في النار». (البخاري ومسلم والترمذي والنسائي).

طرفة عين لا ترضى

وجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشاً إلى الروم، وفيهم رجل يقال له: عبد الله بن حذافة السهمي من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فأسره الروم فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا له: إن هذا من أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم).

فقال له الطاغية: هل لك إلى أن تنصر وأشركك في ملكي وسلطاني؟

فقال له عبد الله رضي الله عنه: لو أعطيتني ما تملك، وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما فعلت.

قال: إذاً أقتلك.

قال: أنت وذاك.

فأمر به، فصُلب؛ وقال للرماة: ارموه قريباً من يديه، قريباً من رجليه، وهو يعرض عليه، وهو يأبى.

ثم أمر به فأُنزل، ثم دعا بقِدرٍ فصب فيه ماء حتى احترقت، ثم دعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فألقي فيها رحمه الله وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى.

ثم أمر به أن يُلقى فيها، فلما ذُهب به بكى، فقيل له (للملك): إنه قد بكى. فظن أنه جزع، فقال: ردّوه. فعرض عليه النصرانية فأبى.

فقال: ما أبكاك إذاً؟

قال: أبكاني أني قلت في نفسي: تُلقى الساعة في هذه القدر فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نَفْسٌ تُلقى في الله.

قال له الطاغية: هل لك أن تقبّل رأسي وأخَلّي عنك؟

قال له عبد الله رضي الله عنه: وعن جميع أسارى المسلمين.

قال: عبد الله رضي الله عنه: فقلت في نفسي: عدو من أعداء الله، أقبّل رأسه يخلي عني وعن أسارى المسلمين لا أبالي.

فدنا منه فقبّل رأسه، فدفع إليه الأسارى، فقدم بهم على عمر رضي الله عنه.

فأخبر عمر بخبره، فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبّل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام عمر فقبّل رأسه.

(حياة الصحابة).

لذائذ الحب

لا يستطيع أحد وصف محبة الله ورسوله، وكلما تمكنت في القلب زاد تقديمها على غيرها من لذائذ الحياة وبقية المحبوبين، فلكل حبيب درجة وحدّ يقف عنده أما لذة القلب إذا استقرت في النفس، وخالطت القلب وجد صاحبها لذة، واللذات درجات بقدر ما تتمكن في فؤاد الإنسان يجد متعتها، وهي قسمان:

١- لذة مادية يستشعر الإنسان لذة النظر إلى شيء جميل، وكذلك لذة الشم والسمع وبقية الحواس.

٢- لذة معنوية كلذة العلم وحلّ المسائل، والاطلاع على خفايا العلم، ولذة الشهرة والرئاسة والقوة، واللعب، والسيطرة.

وفي كلتيهما يختلف شعور الإنسان عن شعور غيره تجاه المحبوب وتجاه ما يجد لذته في قلبه، فالناس يختلفون في الشعور، ويستعد الإنسان غالباً لبذل كل ما دون المحبوب ولذته حبه من أجل لذة عظيمة أعلى.

وتختلف درجة اللذة عند الإنسان حسب السن والقدرات الجسمية، وحسب القيم التي يحملها، فمثلاً:

عند الصبي لذة اللعب أعظم من لذة الطعام.

وعندما يكبر تصبح لذة الأقران والأصحاب لها نكهة خاصة.

وعندما يكبر تصبح لذة النساء عنده لذة رئيسية.

وبعد فترة لذة جمع الأموال.

ثم لذة الوجاهة والشهرة.

فإذا زادت طموحاته تصبح لذة المنصب.

وقد تصبح اللذة المعنوية أعظم من اللذات المادية الحسية، إنسان يلعب الشطرنج قد يُدعى إلى الطعام فلا يأتي فيقال عنه: إنه مغموس.

وكذلك لو قارنت بين صاحبي علمين أحدهما في الذرة أو الفلك والثاني في الشطرنج لوجدت أن من ينفع الناس بعلمه أعظم.

لذة فيما ينفع الناس خير من لذة ذاتية فقط، واللذة تابعة للمحبة، وأي شرف ألذ من معرفة الله تعالى؟

لذة الإيمان أعظم

وقد سبق ذكر الحديث للذي يجد حلاوة الإيمان، ثم كانت هذه اللذة ميزاناً ليعرف الإنسان درجة إيمانه، فليسأل الإنسان نفسه:

هل لذة إجابة الصلاة أعظم من لذة الطعام؟

هل لذة مراعاة أمر الله أعظم من لذة ملاعبة الأولاد والأهل؟

هل لذة مناجاة الله أعظم من لذة أي عمل أنت تقوم به؟

وغير هذه من الأسئلة للمقارنة فقط!

تقديمُ ما يحب الله على أي عمل للإنسان ميزانٌ لمعرفة الإنسان دينه، فليعرف كلٌ درجة إيمانه ولذته.

٤- من ثمرات المحبة: يحبه الله

هو وليّ لله سبحانه، وفي الحديث القدسي: قال رسول الله ﷺ:

«قال الله تعال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب».

وهنا سؤال:

كيف تحصل على حب الله تعالى:

١- أدّ الفرائض، ففي الحديث القدسي: وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إلي ما افترضته عليه.

٢- التقرّب بالنوافل: وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه.

٣- وابتعد عن المنكرات (الكبائر) أي أن الجوارح (الأعضاء) تصبح كلها في طاعة الله سبحانه، وتبتعد عن المنكرات، وبهذا ورد في الحديث القدسي: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه» (البخاري).

وقد أشار العلماء إلى أن هذا مجاز، وهو كناية عن نصرة الله للعبد وتأييده وإعانته، حتى كأنه سبحانه ينزل نفسه من عبده منزلة الآلات التي يستعين بها، وهو توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: من الآية٢٠٥).

٤- محبة قراءة ما يحب الله سبحانه: حديث عن عائشة رضي الله عنها أمير السرية: وكان يقرأ (سورة الإخلاص). قل هو الله أحد في كل صلاة، فسأله أصحابه، فقال: «هي صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها». قال ﷺ: أخبروه أن الله يحبه. (البخاري).

٥- الجهاد: وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ (الصف: من الآية٤).

فليوطن المسلم نفسه على أن يتوحد مع المجاهدين في سبيل الله، ولتحدثه نفسه بغزوة.

والجهاد في سبيل الله يكون بالنفس واليد واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

٦- التوبة: ﴿إن الله يحب التوابين﴾ (البقرة:٢٢٢).

لأن التوبة طهارة القلب (طهارة الباطن).

٧- اتباع الرسول ﷺ واتباع سنته: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ويغفر لكم ذنوبكم﴾ (آل عمران: من الآية٣١)، إذ جعل المحبة سبباً للغفران، وجعل الاتباع شرط المحبة، فإذا سار الإنسان في هذا الطريق (سار في طريق الإيمان والصدق والحرص على الطاعة) تزداد المحبة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ❖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ❖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ (الليل:٥-٧).

وأما من سار في طريق المعصية فإنه تقل المحبة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ❖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ❖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (الليل:٨-١٠).

وغير ذلك من الأعمال الحسنة، والنوايا الحسنة، والمواقف الحسنة التي يحبها الله سبحانه وتعالى.

أداء الفرائض، والنوافل، وتلاوة القرآن، والجهاد، والتوبة، من الأسباب المهمة لمحبة الله سبحانه وتعالى.

نتائج محبة الله للعبد

فإذا أحب الله العبد جعل له وُدّاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ (مريم:٩٦)، والمحبة لله للعبد نتائج وثمار عظيمة منها:

١- محبته للعبد كما ورد في الحديث القدسي: حتى أحبه.

٢- أحبه جبريل عليه السلام.

٣- أحبه أهل السماء والملائكة المقربون.

٤- وضع له القبول في الأرض.

٥- استجاب الله له سؤاله ودعاءه، وقضى له مسائله.

٦- غفر الله له.

وإلى ذلك يشير الحديث، قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: إني أحب عبدي فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».

وإذا أبغض عبداً دعا جبريل عليه السلام، فيقول: «إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض». (مسلم).

محبة الله أتم من محبة العبد، لقد جعل له قلباً يحبه فيصل به إلى الرضا والنعيم.

المآل مع المحبة والحبيب

تلك الثمرات في الدنيا، أما في الآخرة فإنه يحشر مع من أحب، سأل رجل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟

قال: وما أعددت لها؟

قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله.

فقال: أنت مع من أحببت.

قال أنس رضي الله عنه راوي الحديث-: إنما فرحنا بشيء فَرَحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت».

قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بأعمالهم. (البخاري ومسلم).

ويكون اللقاء بعد الموت، إذ يصبح الموت هيناً على المحب، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لما جاءه الموت فقال عنه (الموت) حبيباً جاء على فاقة، لا أفلح من ندم.

كما قال بلال رضي الله عنه وقد جاءه الموت: وافرحاً وطرباً، غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه.

وكان رسول الله صلى قبلهما قد خيّر بين أن تطول فترة بقائه في الدنيا أو يموت فوراً، فقال: بل الرفيق الأعلى.

ولله المثل الأعلى

رجل في الدنيا له حبيب في مكان آخر لا يلقاه إلا بالسفر، فهل يكره السفر لما فيه من مشقة؟

والأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين.

يلتقي يوم القيامة المحبون وبأحبابهم في دار القرار، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

كيف يبدأ الحب؟

١- يتعلق القلب بالمحبوب وهذه تسمى العلاقة.

٢- ثم يميل القلب إلى المحبوب ويطلبه، وهذه هي الإرادة، إرادة المحبوب.

٣- ثم ينصب القلب إلى المحبوب كانصباب الماء في المنحدر، وتسمى الصبابة.

٤- فيلازم القلب محبوبه كملازمة الغريم غرماءه في طلب حقه، ويسمى الغرام.

٥- ويصفو للحبيب ويوده ويسمى الوداد ولا يخفي عنه شيئاً، ولا يريد له إلا الخير.

٦- فإذا وصل المحبوب إلى شغاف القلب (غشاء رقيق يغطي القلب) دعي شغفاً (أي الحب المستولي على القلب).

٧- ثم كان العشق الحب المفرط الذي يُخاف على صاحبه منه.

٨- فإذا ذل القلب للمحبوب، وانفرد به، كان التتيم.

٩- ثم يعبد القلب محبوبه ظاهراً وباطناً، وهي حقيقة العبودية، فتسمى هذه المرحلة (بالتعبد)، وقد وصف بها الرسول ﷺ في أعظم مقام له في الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ (الإسراء: من الآية ١).

١٠- وفي النهاية يتخلل الحبيب في الروح والقلب معاً فتسمى الخلة.

قال عليه الصلاة والسلام: «ولو كنت متخذاً خليلاً من الناس لاتخذت أبا بكر خليلاً » (الترمذي).

لأن الخلة تلزم فضل مراعاة للخليل، وقيام بحقه، واشتغال القلب بأمره، فأخبر ﷺ أنه ليس عنده فضل (زيادة) مع خلة الحقّ للخلق، لاشتغال قلبه بمحبة الله سبحانه، فلا يحتمل ميلاً إلى غيره، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً». (البخاري ومسلم).

عشر درجات أو مراتب للمحبة، فلينظر الإنسان في أية مرتبة حبُّه.

تلك درجات تجمعها كلمة المحبة وبمثلها تتفاوت مراتب الناس، اللهم ارزقنا حبك.

دعاء

اللهم ارزقنا حبك وحب نبيك وحب من يحبك وحب كل عمل يقربنا إليك.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، فضلاً منك ونعمة، أنت ولينا نعم المولى ونعم النصير، وبالإجابة جدير.

الفصل الخامس

المعصية

الحمد لله رب العالمين، رحمن السموات والأرض ومن فيهن، تنزل رحماته وأرزاقه إلى العباد، بينما تصعد إليه سيئاتهم، فلا هو يقطع رحماته عنهم ولا نعماءه ولا أرزاقه، وهو القادر على أن ينزل عليهم عذاباً، ولكنه أمهلهم لعلهم يتوبون، ففتح أبواب التوبة حين يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل، فيفرح فرحاً لتوبة العاصي لأن رحمته سبقت غضبه.

والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين الذي كان يستغفر سبعين مرة في كل مجلس وفي كل يوم، ولقد قال: «إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة». (البخاري).

وعلى آله الطيبين الطاهرين، وارض اللهم عن صحابته الكرام، الذين جاهدوا بأنفسهم ليبعدوها عن المعاصي، وكانوا توابين أوابين.

الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر -والقدر ما قضاه الله تعالى وحكم به الأمور- ركن من أركان الإيمان، كما ورد في حديث جبريل عليه السلام حين سأل الرسول ﷺ قال: فأخبرني عن الإيمان؟

قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». (مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي). ونؤمن أننا مكلفون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الرخاء والبلاء

وقد قدر الله سبحانه أن في إطاعة الله بالشكر على نعمائه ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل: من الآية٥٣).

ووعد عباده الشاكرين الطائعين بالمزيد بقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (ابراهيم: من الآية٧).

دوام الأمن والرخاء والنعم يكون بطاعة الله.

أما البلاء وذلك ما يصيب الناس من بلاء وضر وضيق على المستوى الفردي أو الجماعي فهي بسبب المعاصي وكثرتها، والتمسك بغير شرع الله، وإهمال أوامر الله سبحانه ونسيانها، لقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء: من الآية٧٩).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠).

وقوع الكوارث بكثرة الذنوب من القدر.

التفسير المادي

وهناك بعض الناس من يفسر هذه الأمور السابقة تفسيراً مادياً يعيدها إلى القضايا الاقتصادية أو العولمة، أو النواحي الجغرافية، أو الطبيعية، وهذا التفسير غير مقبول قدراً، لأن الله يعلم والبشر لا يعلمون، فقد نصت الآيات القرآنية على ذلك. كما مرت ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠).

ولو يؤاخذنا الله بكل ذنوبنا ما ترك على الأرض من دابة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ (فاطر: من الآية٤٥). ولكنه الرحمن الرحيم يعفو عن كثير.

لم البلاء إذن؟

قال تعالى: ﴿هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ (الملك:٢).

والبلاء عقوبة، فقد جعل الله هذا اختباراً، وهو اختبار صعب، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «حُفَّت النار بالشهوات، وحُفَّت الجنة بالمكاره» (مسلم والترمذي).

وإن الدنيا دار ابتلاء وهكذا خُلقت، وقد ابتُلي الصالحون وقبلهم الأنبياء، فإن هذا الحديث الشريف من جوامع الكلم، وبديع البلاغة، كما ذكر ابن حجر العسقلاني في ذم الشهوات، فإنها شهوات وإن مالت لها النفوس لأنها تؤدي إلى النار).

وفيه حض على الطاعات وإن كانت شاقة على النفوس، والمكاره هنا ما أمر الناس به من طاعات وعبادات لأن الصبر والتسليم لأمر الله شاق وصعب، خاصة إذا وقعت الشدائد أيضاً.

الشهوات لذيذ الدنيا غير المباح، والمكاره ما فيه مشقة على النفس كالطاعات.

متى الحساب؟

يدخل في الشهوات كثير من المحرمات التي تشتهيها النفس البشرية، ويلحق بها الشبهات، وقد تكون بالإسراف في الحلال المباح، لذلك حفت بها النار، ويدخل الشيطان من هذا الطريق إلى النفس فيغريها ويحببها.

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ (مريم:٥٩).

وذلك بعد الحساب يوم القيامة، هذا إذا لم يحاسب الإنسان نفسه في الدنيا، لذلك يقول عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم.

ترك الشهوات طاعةٌ لله سبحانه، ويثيب عليها الله.

آثار العصيان في الدنيا

١- يُبتلى الإنسان ببعض الكوارث وبآثار البيئة الفاسدة في دنيا الأرض، وقد بينت ذلك الآية الكريمة: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم: من الآية٤١).

وفيها تذكير حتى يعود الناس من أهل الفساد إلى العبرة فيتعظوا ويعودوا إلى الصواب، فيصحوا ويتركوا دروب الفساد.

يتعظ المتقون، أما غيرهم فلا يؤمنون بالقدر ليصحوا.

٢- تتعطل أحكام الدين وتنقض عرى الإسلام عروةً عروةً نتيجة لكثرة المعاصي، وتعطل الحدود، بل وينسلخ كثير من الناس لغلبة المعاصي والفسوق على الحياة العامة وهم لا يشعرون أحياناً ويشعرون أحياناً.

لا يدري معظم الناس أن البعد عن الدين تكون الحياة الشاقة عليهم.

٣- قلة الأمطار ونقصان الرزق ويعم القحط والجدب نتيجة انغماس الناس في الشهوات والرذائل، وترك الاستغفار مع أن الآية الكريمة تصرح بأن الرزق والأموال والسعة مرتبط بالاستغفار، قال تعالى:

﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ❖ يرسل السماء عليكم مدراراً ❖ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ (نوح:١٠-١٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ❖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢-٣)

وقد ورد في الحديث: «.. ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا» (الحاكم والبيهقي)

٤- انتشار الأوبئة والأمراض إذا عملت الأمة بالمعاصي ابتلاها الله سبحانه بأمراض لم يسبق لها نظير في تاريخ البشرية، ألم نسمع بأمراض لم نكن نسمعها في طفولتنا كالإيدز وغيره.

من أين جاءت؟

جاءت من الفحشاء والآثام كما قرر ذلك جميع أطباء العالم، وقد سبق أن وردت في الحديث: «.لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا» (الحاكم والبيهقي).

وقد جاء في الحديث:

إذا ظهرت القينات (المغنيات) والمعازف، وشربت الخمور، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء، وزلزلة، وخسفاً، ومسخاً، وقذفاً. (الترمذي).

٥- يطبع على القلب، وإنه أخطر عقوبة، ألا يتأثر قلب الإنسان بالمواعظ، ولا يستدل بالإرشاد، ولو أهديت له موعظة (شريط أو كتاب ما يعظه ويرشده) لا يحب أن يقبله أو يقرأه، بل يولي مستكبراً. قال الحسن البصري رحمه الله: الرّان هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب ويموت من كثرة الذنوب فلا يعود يتأثر بشيء ولا يحب مجالسة الصالحين، بينما يحب سماع المعاصي ويجالس أهلها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الزمر:٤٥)

يصبح القلب بفعل المعاصي كإناء مقلوب لا يقبل أن يملأ بشيء.

٦- الغفلة عن العلوم الشرعية، علوم الدين وعلوم القلب وفهم الحياة، وتنصرف القلوب إلى معرفة أمور الدنيا بالعلوم التكنولوجية والدنيوية، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧)

٧- قلة الحفظ وصعوبة الفهم

وفي هذا المعنى يقول الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقالَ اعلَمْ بأن العلم نور ونور الله لا يُهدى لعاصي

وكيع بن الجراح: شيخ الشافعي، رحمهما الله تعالى.

٨- عدم استجابة الدعاء

كما في الحديث الصحيح عن ذلك الأشعث الأغبر الذي يطيل السفر ويرفع يديه إلى السماء: يا رب، يا رب. فلا يستجاب له، وأنى يستجاب له، لأن مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام.

٩- تجر المعصية إلى معصية، والذنب إلى ذنب، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ❖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ (الليل:٨-٩)، البخل يجر إلى الاستغناء عن الله سبحانه، وإلى أكل حق الفقير والمسكين، ويؤدي بعد ذلك إلى أن يكذب بيوم الحساب.

١٠- ثم يكون البلاء من أنه يُرفع عن العاصي الحياءُ، وقد جاء أنه يصنع ما يشاء من الموبقات والمعاصي فلا يستحي من الناس ولا يتقي من الله سبحانه.

١١- حرمان البركة، والبركة معنى في زيادة الخير والإنتاجية والمضاعفة، يفعل الإنسان شيئاً صغيراً فتأتيه النتائج كبيرة، وفي الآخرة الثواب العظيم.

لكن المعاصي تسبب ذاك الحرمان من البركة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦).

فتعيش الأمة معيشة الضنك والشقاء.

١٢- القلق النفسي

وقد عاينت ذلك حين عشت في أمريكة، فإن وسائل الترفيه شيء عجيب في المدن، والملاهي كثيرة ملفتة للنظر، ومع ذلك فإن ٨٠٪ من ذلك المجتمع الأمريكي يعيشون على الحبوب المهدئة المفتّرة أو على المخدرات، هذا في ذاك الزمان قبل أكثر من عشرين عاماً، فكيف الآن؟!

فالقلب لا يطمئن إلا بالله، وقد قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: إن في القلب لوحشة لا يملؤها إلا الله وذكره.

١٣- تسليط الله سبحانه عدواً على الناس من داخلهم ومن خارجهم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأنعام:١٢٩).

وقد رأينا بين المسلمين لما عصى قسم منهم في غزوة أحد، قال تعالى عنهم: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: من الآية١٥٢).

أما كانت آثار المعصية عقوبة للمسلمين؟!

١٤- وأخيراً وليس بآخر آثار المعاصي أنها تهدم جزءاً من الإسلام، ولنضرب مثلاً:

ظهور التبرج بين نساء المسلمين حتى إن بعض بلاد المسلمين يعتبرون الحجاب ليس من الدين في شيء، فأصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، فيظن النشء القادم الذي نشأ في مثل هذه الأجواء أن الوضع طبيعي وأن السفور حلال.

تلخيص ما سبق

لخص عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقال:

إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق.

وإن للسيئة لسواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق.

السم يقتل الجسد، والمعاصي تقتل القلب، والروح تُقتل بالذنوب.

الدواء

إذا تدارك الإنسان المعصية بالدواء ألا وهو الإيمان وحده فلا يستسيغ المؤمن المعاصي، ولا يستمر إذا وقعت منه واحدة، وينبه إلى خطورتها على الفرد والجماعة والأمة، فيعود العز والبركة، ويعم الأمن والرخاء.

الحديث الجامع

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشربها نُكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء».

حتى تصير على قلبين: أبيض مثل الصفا (الحجر الأبيض الصلد) فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض.

والآخر أسود مُربادّاً (في لونه السواد والغُبرة) كالكوز مُجْخياً (المائل المقلوب) لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشرب هواه.

والفتن المقصود هنا فتن المعاصي، وفتن الظلم، وفتن الجهل.

يبقى القلب أبيض ناصعاً بالتوبة وإنكار المنكر.

نفسية العاصي

يريد الشيطان من الإنسان أن يقع في المعاصي ثم يستسلم له، ولكن هذا الإنسان أحد ثلاث: إما أن يفرح بها، أو لا يسر بها، أو تسوؤه.

المعاصي والبشر

١- قسم يفرحون بالمعاصي ويستمرئون بها، ويجدون المتعة واللذة، وهم الفجار، وقد ماتت قلوبهم، فلا يشعرون، ولا يحسون!

ومثاله شاب تحكمت المعاصي في قلبه، يخطط كيف يذهب إليها، وكيف يجمع الأموال، وإذا اجتمع بأصحاب السوء يتفاخرون بالمعاصي، وإذا ذُكّر أو سمع قرآناً حاول فوراً أن يبتعد عن أماكن الصلاح.

٢- وقسم إن وقعوا في الذنوب ندموا وحزنوا، ثم عزموا على ألا يعودوا، ويصدقون في ذلك، وهم التائبون توبة النصوح.

مثاله: الشاب الذي يبغض المعصية والعصاة، ولكنه يضعف أحياناً بتغلب الشهوة عليه يقع في المعصية لكنه يندم، ثم يتوب، ثم يعود إلى الذنوب، ثم يتوب، ثم يقع كرة ثالثة في الذنوب، ويتوب، وهكذا.

٣- قسم على الصلاح وعلى الخير وهم الأقلة، ولكن قد يقع الواحد منهم في معصية، إلا أنه غير مصر عليها فيبادر إلى التوبة.

فهم في رجاء ألا يقعوا في المعصية حذر الموت.

وإلى هذا أشار ابن السماك رحمه الله حين قال: إن الناس على ثلاثة أصناف:

- صنف تائب من الذنب عازم على هجرانه، لا يريد أن يرجع إلى شيء من سيئته، قال تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:١٣٥)

- صنف يذنب ثم يندم، ويذنب ثم يحزن، ويذنب ويبكي، فهذا يرجى له ويخاف عليه (في باب الرجاء أن يرحمه الله، وفي باب الخوف أن يموت على معصية).

- صنف يذنب ولا يندم، ولا يبكي، هذا هو الحائد عن طريق الجنة إلى طريق النار.

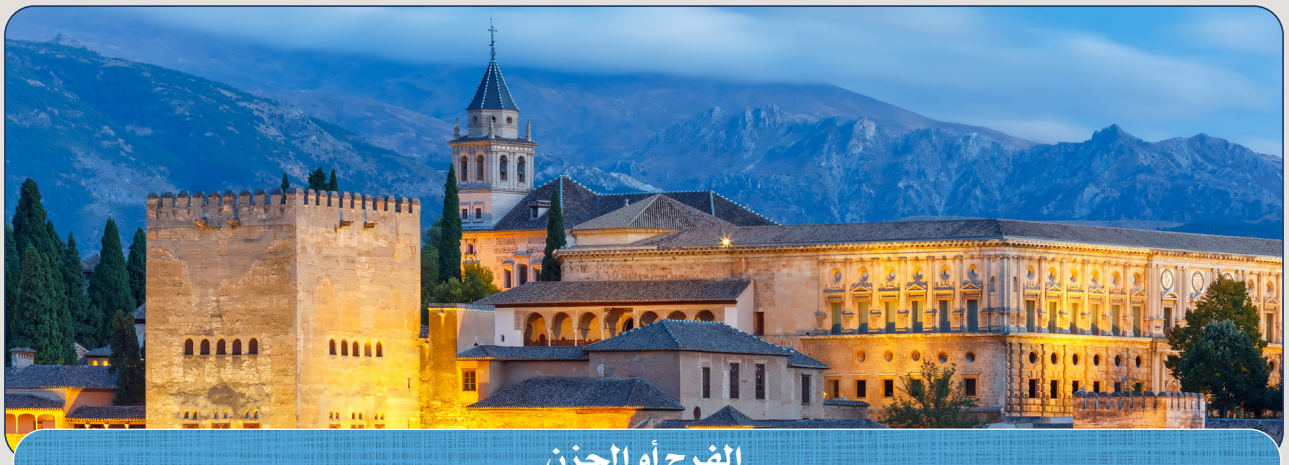

الفرح أو الحزن

إن مقياس نفس الإنسان بالمعصية وعلاقتها بها لهو الذي يحدد هذه النفسية.

- نفس المؤمن: ترى عظمة الذنب، وكأنه جبل تخاف أن يقع عليها كما صور ابن مسعود رضي الله عنه إذ قال: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل أن يسقط عليه الجبل.

ولا ترى احتقاراً لذنب إطلاقاً معتبرة من قول الرسول ﷺ: «وإن الشيطان قد أيس أن يُعبد في بلدكم هذا أبداً، ولكن سيكون له طاعة فيما تحقرون من أعمالكم فسيرضى به». (الترمذي).

ويرى الأوزاعي رحمه الله: أن الرجل إذا أذنب ذنباً وهو يحتقره فتلك كبيرة وإن كانت صغيرة على زعم مرتكبها، وقد أجاد ابن المعتز فقال:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أرضِ الشوك يحذرُ ما يرى
لا تحقرنَّ صغيرة إنّ الجبال من الحصى

- نفس الفاجر: ترى الذنب مثل ذبابة وقعت على أنفه، فأزاحها بحركة بسيطة من يده، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب على أنفه فأزاحه.

فنفسه لا تتأفف من الوقوع في الآثام، ولا بوخزة ندم، أو بشعرة أسى، وتفرح أشد الفرح من لذة آنية وتعتبر المعصية شهوة سانحة، بل تتابع فيها كالنفس المسعورة.

فانظر إلى نفسك هل أنت تستشعر بعظم الذنب فأنت على خير حال، أما إن كنت جريئاً بالذنوب ولا تشعر بالحزن فأنت في خطر.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعرة وإن كنا نعدها على زمن النبي صلى الله عليه وسلم من الموبقات (المهلكات). (رواه البخاري).

ويقول بلال بن سعد رحمه الله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت.

أمر خطير

يقول الأوزاعي رحمه الله: من الكبائر أن يعمل الرجل الذنب يحتقره، وقد قال عليه الصلاة والسلام: إياكم ومحقرات الذنوب، كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء هذا بعود، وهذا بعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها. ذنب على ذنب يعتبر فعلاً كبيراً.

ويقتبس هذا المعنى الشاعر ابن المعتز، فيقول:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها ... وكبيرَها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أرض ... الشوك يحذرُ ما يرى
لا تحقرنَّ صغيرة ... إنّ الجبال من الحصى

وقد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع قال:

ألا وإن الشيطان أيس أن يُعبد في بلادكم هذه أبداً، ولكن ستكون له فيما تحتقرون من أعمالكم.

تحزن نفس المؤمن إن وقعت في معصية، بينما تفرح نفس الفاجر، فالحزن والفرح مقياس للنفس.

درجة المعصية

إن المعصية تختلف درجتها بحسب من يرتكبها، وتختلف بزمان فعلها، وبمكان ارتكابها، وبحسب الجهر أو الإسرار (أي كيفية ارتكابها)، وبحسب السرور بها أو الخوف منها.

وقد ورد في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل أمتي معافى إلا المجاهرون (وفي أكثر الروايات إلا المجاهرين بالنصب) وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، فيصبح يكشف ستر الله عنه». (البخاري ومسلم، وقسم منه الترمذي).

فهو بالإضافة إلى هذا مخالف للأدب الشرعي، يكشف ستر الله عليه، لذلك لا يحب الإسلام المجاهرة بالمعاصي.

خطر المجاهرة

١- تمرد على الله إذ يفعل المرتكب جهاراً وكأنه تحدٍّ لله سبحانه وتعالى.

٢- يمكن أن يصبح المجاهر قدوة للآخرين، فيجرّئهم على ارتكاب الإثم.

٣- يشيع الذنب بين الناس، إذ تقول النفس الأمارة بالسوء لصاحبها: هذا فلان عمل الذنب، وذاك فلان ارتكبه، فأقدِمْ عليه ولا تخف .

٤- خروج على الأمر بالستر، وقد كان رسول الله ﷺ يحرص على ألا يعلن أحد عن معصيته، وليستتر عنها لأن الأصل الاستتار.

٥- قد تؤدي المجاهرة إلى كره الطيبين لمرتكب الذنب، فليعنونه، أو يدخل إلى قلوبهم عدم الطمأنينة منه.

٦- تؤدي المجاهرة إلى قسوة القلب، فلا يقدم إلى الاستغفار والندم.

فضل الستر

فمن أصاب شيئاً (ذنباً) ثم ستره الله، يقول عليه الصلاة والسلام عنه: «**فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه**».

الستر أولى إن وقعت معصية من النفس، والمبادرة إلى التوبة أفضل.

تحويل المعصية إلى خير

أحب القلوب إلى الله قلب تمكن منه الانكسار إلى الله سبحانه، ينكس رأسه بين يدي الله سبحانه، فتواضع وأظهر:

أنه ما استطاع أن يوقف نفسه من شياطين الإنس والجن فوقعت نفسه في الذنب، لذلك التجأ إلى سند عظيم، سند من الله سبحانه، ففرّ إليه يسأله أن يعينه، ويمده، ويغفر له زلته.

﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الفرقان: من الآية ٧٠).

وقد روى الطبراني بسنده عن أبي فروة رضي الله عنه: أنه أتى النبي ﷺ، فقال: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلَّها، ولم يترك حاجة ولا داجة (ما صغُر من الحوائج)، فهل له من توبة؟

فقال: أسلمت؟

قال: نعم.

قال: فافعل الخيرات، واترك السيئات، فيجعلها الله لك خيرات كلَّها.

قال: وغدراتي وفجراتي.

قال: نعم.

فما زال يكبِّر حتى توارى.

المعصية عمل وحركة، يجب ملء فراغه بعمل مضاد، فتنقلب إلى خير.

سجود البدن

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟

قال: نعم، يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة.

فإذا سجد القلب عرف الإنسان -حق المعرفة- عظمة الرب سبحانه، وعرف الإنسان ذلّه، وإذا صلح القلب صلح الجسد، وكل عمل ينبعث من القلب عند ذلك تسجد الجبهة، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقول عند سجدة جبهته: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوّره، وشقَّ سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين». (مسلم).

تخضع أعضاء الإنسان للذي خضع القلب له، فتسجد لمن سجد القلب له، تبارك الله رب العالمين.

مثال

كان شاب يعيش في بيت أبيه، يربيه والده أحسن تربية، ويقوم بمصالحه كلها من أطايب الطعام وأهنأ الشراب، وأجمل الثياب.

أرسله والده في حاجة له، وعلى الطريق أسره عدو له، وشد وثاقه، وسامه سوء العذاب، وعامله بالشدة والقسوة.

عاش هذا الولد بالذكرى مقارناً حاله الآن بما كان عليه، وكان يرجو أن ينجو، وشاء القدر أن يغفل عنه عدوه، فانفلت وولى مسرعاً إلى ديار والده، والتقى بأبيه وأمه.

ألقى نفسه عليهما وانطرح يستغيث كأنه يخشى أن يعود إلى الأسر والعذاب.

عانقه والده والتزمه.

جاءه العدو كرة أخرى وبيده السلاح، فصاح الولد خائفاً: يا أبت أنقذني ولا تسلمني!

هل ترى أن هذا الأب يسلم ولده؟ وهل يخلّي بينه وبين العدو؟

كلا. كلا. كلا.

ولله المثل الأعلى، فالله تعالى أرحم بعبده من هذا الأب بولده، فلا يدعه للشيطان والنفس والهوى إذا استعاذ العبد به، فقال: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك من منكرات الأهواء.

رحمة الله بالعبد

في مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ يقول: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم، والملائكة تستأذنه أن تعجله وتهلكه (أي العبد العاصي)، والرب -سبحانه- يقول: دعوا عبدي، أنا أعلم به، أنشأته من الأرض».

إن كان عبدكم فشأنكم به! وإن كان عبدي فمني إلى عبدي، وعزتي وجلالي: إن أتاني ليلاً قبلته، وإن أتاني نهاراً قبلته، وإن تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً، وإن تقرب مني ذراعاً، تقربت منه باعاً، وإن مشى إليّ هرولت إليه.

وإن استغفرني غفرت له، وإن استقلني أقلته، وإن تاب إلي تبت عليه.

من أعظم مني جوداً وكرماً؟! وأنا الجواد الكريم، عبيدي يبيتون، يبادرونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم في

مضاجعهم، وأحرسهم في فرشهم، من أقبل إلي تلقيته من بعيد، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد، ومن تعرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

ومن أراد مرادي أردت له ما يريد، أهل ذكري أهل مجالستي، أهل شكري أهل زيارتي، أهل طاعتي أهل كرامتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا إليّ فأنا حبيبهم، أو لم يتوبوا فأنا طبيبهم، ابتليتهم بالمصائب لأطهرهم من المعاصي.

ما أجمل ما يعرضه ربنا، هو الحبيب والطبيب والحافظ ومدبر الأمور، وسعت رحمته كل شيء.

عباد الرحمن

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾

﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً﴾

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ ﴿الفرقان:٦٣-٧٦﴾

فاز من دخل في عبودية الرحمن من باب التوبة والإنابة.

فروا إلى الله

فليهرب الإنسان من عدوه (الشيطان) ومن سائر أعدائه إلى خالقه، وليلق نفسه ساجداً بباب الله رب العالمين، وليتضرع باكياً قائلاً: يا رب ارحم من لا راحم له سواك، ولا مغيث له سواك، ولا ولي له سواك، ولا ناصر له سواك.

عبدك الفقير جاءك سائلاً لا ملجأ له ولا منجى له إلا إليك.

قال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(الأعراف: من الآية٥٦).

أترى هل يتركه ربه لعدوه، وهو القائل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾(الذاريات: من الآية٥٠).

قال ابن تيمية -رحمه الله-: من أراد السعادة فليلزم عتبة العبودية، وقد سُئل مرة عن المعصية: هل هي خيرٌ للعبد؟ قال: نعم، بشرطها من الندم والتوبة والاستغفار والانكسار.

مشهد العبودية والمحبة والشوق إلى لقاء الله هو سكون القلب واطمئنان الجوارح، فإذا أذنب العبد فرّ إلى الله.

الرجوع إلى الله

إنه يكون حقيقة بالتوبة النصوح حتى إن المعاصي تتحول إلى حسنات.

وليس في هذا تشجيع إلى المعاصي، وحث على الذنوب، وإنما هو فتح عريض لباب الإنابة، وعكس ذلك من مداخل الشيطان بأن يوسوس للإنسان أن يكثر من الذنوب ثم يتوب إلى الله!!

من فضل الله ورحمته محو السيئات وغفران الذنوب، فليبادر الإنسان قبل موته إلى الرجوع.

التائب وغير التائب

يقول تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(النور: من الآية٣١) ترى في هذا الأمر أن المسلمين جميعاً مأمورون بالتوبة.

ويقول عزّ من قائل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: من الآية١١)، ولا أظلم منه لجهله برب غفور يريد أن يعفو عنه فيتجرأ عليه ولا يتوب.

التائب هو المؤمن، وغير التائب هو الظالم.

ما هي حقيقة التوبة؟

حقيقة التوبة علمك بأنها تريح بال المسلم من هم عظيم وقع فيه، فلذلك تبادر إلى:

١- الاستغفار الدائم وقد كان رسول الله ﷺ -وهو الذي قد غفر له ما تقدم وما تأخر- يتوب في اليوم أكثر من ٧٠ مرة، وكان الصحابة يعدون له، فيكثر من الاستغفار في كل مجلس.

وفي الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا الذي أغفر الذنوب ولا أبالي، فاستغفروني أغفر لكم» (مسلم والترمذي).

٢- الابتعاد عن طريق المغضوب عليهم والضالين كما وردت في سورة الفاتحة.

٣- طلب المعونة من الله رب العالمين والاعتصام به حين يوكل الأمرَ إليه.

٤- معرفة أعدائه وأولهم الشيطان، ومنهم النفس، وأعظم الخذلان أن يكل الله الإنسان على نفسه.

٥- الشعور بالأسى وحرقة النفس إن وقعت معصية منه، فيملأ الحزن قلبك، لكنك تطمئن برحمته فإنك تتعامل مع الرحمن الرحيم.

٦- عدم الإصرار على الذنب، أو الاستمرار عليه، أو ارتكابه جهاراً.

التوبة ندم وإقلاع عن الذنب، واعتذار شديد بين يدي التواب.

دعاء الندم

قال عليه الصلاة والسلام: «الندم توبة». (ابن حبان والحاكم).

وإنك أيها الإنسان تملك الدعاء، يقول الله تعالى في الحديث القدسي: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني إلا غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني

لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة.

فقل متضرعاً وادعُ: يا رب ما كان مني استهانة بحقك، ولا جهلاً بك، ولا إنكاراً باطلاعك، ولا استهانةً بوعيدك.

يا رب غلبني هواي، وضعفت مقاومتي عن مرض الشهوة.

يا رب أنا طامع في مغفرتك، متكل على عفوك.

يا رب غرني الغرور (الشيطان)، وغرتني نفسي الأمارة بالسوء.

يا رب سترك مرخىً علي، وغلبني جهلي، ولا سبيل لي إلا الاعتصام بك.

يا رب اغفر لي، وارحمني، وتب عليّ.

وقل كما قال أحدهم:

يا من يرى مدّ البعوض جناحَه ... في ظلمة الليل البهيم الأليَل

ويرى نياط عروقها في نحرها ... والمخَّ يجري في العظام النُّحَّلِ

فامنن عليّ بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأول

نياط العروق: متعلَّقها ببعضها، ونياط القلب: عرق غليظ علّق به القلب من الشريان الأبهر (الوتين).

ما أحلى الدعاء

أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلّ لك قلبه.

اتهام التوبة

قدم الاعتذار إلى ربك وتفنن فيه واستغفر، فإذا لم تشعر:

١- أن القلب نادم، وما زال فيه أثر باق (لحلاوة) الذنب.

٢- وكان جمود العين، فلم تنزل قطرة، فاعلم أن هذا قصور في التوبة فاتهمها.

٣- وإذا استمرت الغفلة عليك فما تغيرت نفسك بعد التوبة بل بقيت كما هي عليه.

تلك علامات تدل على التوبة الناقصة فانتبه إليها.

فرح القلب بالذنب، وجمود العين حين التوبة، وعدم تغير النفس بعدها أدلة اتهام على الندم، والتوبة.

التوبة الصادقة

إن ندم الإنسان على ما عمل من معصية، وعزيمة صادقة منه ألا يعود، واستغفار دائم، كل ذلك من دلائل الصدق، أو كما يقول أحدهم: أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك عن المعاصي بالبدن.

ويقول ابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالى-: إن التوبة النصوح تتضمن ثلاثة أشياء:

١- تعميم الذنوب، أي أن التائب لا يخصص توبته بذنب، بل يتوب من كل الذنوب، ما علم منها وما لم يعلم.

٢- إجماع العزم -أي بلا تردد- فلا يسوّف التوبة إلى زمن لاحق بل يسرع إليها.

٣- الإخلاص الكامل وذلك أن يتوب خوفاً من الله، ورغبة فيما عنده، وحباً بالله رب العالمين، لا كالذي يتوب من أجل منصب، أو لاستدعاء حمد الناس، أو حتى لا يتسلّط عليه السفهاء.

هذه الأشياء الثلاثة السابقة إذا فصلتْ نرى: أن الأول (تعميم الذنوب) متعلق بالأمر الذي يتوب منه.

وأن الثاني (إجماع العزم) يتعلق بالتائب نفسه.

والثالث (الإخلاص الكامل) يتعلق بمن يتوب إليه.

التوبة المقبولة: هي النصوح بشروطها من كل ذنب، وبلا تردد مع الخوف والرجاء.

التوبة الصحيحة

يرى ابن القيم رحمه الله أن التوبة المقبولة لها علامات:

١- أن يكون التائب خيراً مما كان قبل توبته.

٢- أنه لا يزال الخوف مصاحباً له الى أن يسمع الملائكة لقبض روحه يقولون: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: من الآية ٣٠)، فهناك يزول الخوف.

٣- تقطع قلبه ندماً وخوفاً، وهذا الانخلاع والخوف على قدر عظم الجناية (الذنب) وصغرها.

انكسار القلب لا يحصل إلا بالتوبة الصادقة بين يدي الرب.

أرجى الرجاء

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣)

إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية، وإنها الدعوة للرجوع إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله سبحانه.

خطر التأخير

على الإنسان ألا يتأخر في التوبة، ويعلل نفسه بالأماني، وان يعلم علم اليقين الخطرَ من تأخير توبته، فإن في التأخير خطرين عظيمين:

١- أنه قد يأتي الموت فجأة فلا يتاح له وقت للتوبة، ولا تكون له فرصة فيموت دون توبة، والعياذ بالله تعالى.

٢- أنه قد تتراكم المعاصي، وقد يسبب ظلمة في القلب فلا يحس، ولا ينفع وعظه أو إرشاده، ولا يتأثر بالمواعظ ولا التذكير.

وبعض الناس يدخل عليهم الشيطان من مدخل آخر، فيقول: أنا لن أتوب الآن لأني أخشى أن أقع في الذنب مرة أخرى!

فتُب يا أخي الآن وإن وقعت في معصية فتُب منها مرة ثانية.

ويقول العلماء: إن الإنسان إذا أصابه المرض لا بد أن يسرع إلى التوبة لأنهم كانوا يخافون من المرض خوفاً شديداً لاحتمال أن يكون سبباً لإخراجهم من الدنيا بالموت.

اشتهاء مريض

مرض أحد الصالحين فدخل عليه أصحابه يعودونه ويزورونه، فقالوا له: كيف تجدك؟

فقال: مقراً (يعترف بذنوبه).

فقالوا: هل تشتهي شيئاً؟

قال: نعم، أن يمنّ عليّ ربي بالتوبة.

فاحذر أيها المسلم من التأخير، وبادر وانتبه إلى التسويف.

تأخير التوبة

مثل الذي يؤخر التوبة مثل رجل أراد أن يخلع شجرة من مكانها!

فحاول أن يخلعها بيديه، فرآها ثابتة الجذور، وأنه يحتاج إلى قوة أكبر لخلعها، فقال في نفسه:

أؤخرها سنة وأعود إليها بعد الراحة والقوة.

أما نسي أنه سيضعف وتكبر سنه، بينما تشتد جذوع الشجرة وتقوى أكثر!.

قال الإمام ابن قيم الجوزية: إذا أراد الله بعبده خيراً فتح له أبواب التوبة.

فرح الله

ولله المثل الأعلى، ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوِّيَّة (فلاة) مُهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش -أو ما شاء الله- قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ، فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فقال من شدة فرحه: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، لقد أخطأ من شدة الفرح يريد أن يشكر ربه. فالله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده». (البخاري ومسلم والترمذي).

إنه سبحانه أشد فرحاً بتوبة العبد إليه من فرح الذي نجا من الموت بعد يأس قاتل.

فائدة التوبة

إن للتوبة فائدتين بالنسبة للتائب:

١- تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له.

٢- نيل الدرجات حتى يصير حبيباً إلى الله كما سبق.

اللهم منّ علينا بمغفرة واسعة، وتب علينا إنك التواب الرحيم، يا من لا تضره المعصية ولا تنفعه الطاعة، أيقظنا من نوم الغفلة، ونبهنا لاغتنام أوقات المهلة، ووفقنا لمصالحنا، واعصمنا من قبائحنا، ولا تأخذنا بما انطوت عليه نفوسنا من أنواع الذنوب والمعاصي التي تعلمها منا، وامنن علينا بتوبة تمحو بها عنا كل ذنب، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والأموات برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

الفصل السادس

التوكل

الحمد لله الذي خلق الخلائق بمقدار، وله الأمر في هذه الدار، وعلينا الحساب في عقبى الدار، وجعل القضاء والأقدار، فمن أطاعه في الإعلان والإسرار، وتوكل عليه وهو المختار فاز، وكان في نعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ومن تولى وابتعد عن طريق الأبرار، وتوكل على الأشرار، وكَله الله إلى نفسه فأضلته وخسر خسران الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

يا بديع السموات والأرض لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين، نحن ضعفاء وأذلاء بين يديك يا رحمن، فاعفُ عنا يا ذا الجلال والإكرام، فأنت قيوم السموات والأرض.

وصلى الله وسلم على سيد الأولين والآخرين، محمد الهادي الأمين، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

معنى التوكل

هو الأخذ بالأسباب، وتهيئة العدة، ونفض الأيدي من النتائج والعواقب، وتعليقها بقدر الله سبحانه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: من الآية١٥٩).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: من الآية٣).

رد الأمر إلى الله في نهاية كل أمر، فالتوكل إيمان، واتخاذ الأسباب عمل.

التوكل صفة المؤمنين

الناس في التوكل حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك والعزة، ومن متوكل في حصول رغيف خبز، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال:٢).

وقال تعالى عن أصحاب نبيه محمد ﷺ في معرض الحديث عن غزوة حمراء الأسد بعد أحد: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣).

أولئك الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى الخروج معه كرة أخرى بعد معركة أحد وهم مثخنون بالجراح، فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، فكانوا لا يعرفون إلا الله وكيلاً، ويرضون به وحده، ويزدادون إيماناً به في ساعات الشدة.

يتوكل المؤمن على الله ولو كانت النتائج مريرة، فضلاً إذا كانت النتائج نعمة وعطاء.

أعظم الجزاء

وفي الحديث من مشاهد يوم القيامة قال رسول الله ﷺ:

«عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبيَّ ومعه الرهط، والنبيّ ومعه الرجل والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب».

ثم نهض فدخل منزله.

فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا الرسول ﷺ.

وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئاً.

وذكروا أشياءَ.

فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «ما الذي تخوضون فيه»؟

فأخبروه، فقال:

«هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون».

فقام عكاشة بن مِحْصَنٍ، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم.

فقال: أنت منهم.

ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم.

فقال: سبقك بها عكاشة. (البخاري ومسلم والترمذي).

المتوكل الكامل لا يتشاءم، ولا يتطير، ولا يتوكل على غير الله، ولن يكون هذا إلا للمؤمن الحق.

أمرنا بالتوكل

أمرنا رسول الله ﷺ أن ندعو بمعاني التوكل باستمرار في أمورنا كلها، فقد ورد عن البراء بن عازب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يا فلان، إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإنك إن متَّ في ليلتك، متَّ على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيراً». (البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود).

فلنبتعد عن الغفلة، ولنتوكل على الله حق التوكل، ولو فعلنا ذلك لرزقنا الله كما يرزق الطير تغدو خماصاً (جائعة) وتروح بطاناً (شبعانة) كما أشار حديث المصطفى ﷺ:

لو أنكم كنتم تتوكلون على الله حق توكله لرُزقتم كما تُرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً. (الترمذي).

التوكل على الله عبادة قلبية ونفسيه.

الرسول القدوة في التوكل

١- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة (شدة الحر وقت الظهيرة) في وادٍ كثير العضاه (كل شجر يعظمُ وله شوك) فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت سمُرة (من أشجار البادية) فعلَّق بها سيفه.

ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: «إن هذا اخترط (سلّ السيف من غمده) عليّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً (رفع السيف فوق النبي ﷺ) فقال: من يمنعك مني؟

فقلت: اللهُ - ثلاثاً- فسقط السيف من يده.

وأخذت السيف فقلت له: من يمنعك مني؟

فقال: يا محمد كن خير آخذ.

فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟

قال: لا، ولكني أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك.

فخلاه النبي ﷺ، فذهب إلى قومه وقال لهم: جئتكم من عند خير الناس». (البخاري ومسلم والموطأ والترمذي وأبو داود والنسائي).

وقيل في اسمه دُعثور، أو غَوْرَثْ بن الحارث.

السيف فوق رأسه يقول الرسول ﷺ مطمئناً متوكلاً لمن هدده بالقتل: الله ينجيني منك!

فلا تعلق القلب إلا بالله، ولو كانت قلوبنا معلقة حقاً بذاته سبحانه لحقّ علينا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في الرزق والحفظ والحماية.

٢- في الهجرة.

قال أبو بكر رضي الله عنه: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا (تحت قدميه).

فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين، اللهُ ثالثهُما؟!

إنه صلى الله عليه وسلم خير قدوة في التوكل بل إنه سيد المتوكلين، وفي كل مواقفه ﷺ.

إن الرسول ﷺ ورفيقه في حماية الله، وكفى. لأنه توكل حق التوكل على الله سبحانه.

الصحابة والتوكل

١- مرض عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرضه الذي مات فيه، فعاده عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال: ما تشتكي؟

قال: ذنوبي.

قال: فما تشتهي؟

قال: رحمة ربي.

قال: ألا آمر لك بطبيب؟

قال: الطبيب أمرضني.

قال: ألا آمر لك بعطاء؟

قال: لا حاجة لي فيه.

قال: يكون لبناتك من بعدك.

قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إن بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً.

٢- توكل علي بن أبي طالب رضي الله عنه

كان علي رضي الله عنه يخرج بالليل إلى المسجد يصلي تطوعاً فجاءه بعض أصحابه يحرسونه، فلما فرغ جاء نحوهم فقال لهم: ما يجلسكم؟

قالوا: جئنا نحرسك.

قال: أمن أهل السماء تحرسون أم من أهل الأرض؟

قالوا: بل من أهل الأرض.

قال: إنه لا يكون في الأرض شيء حتى يُقضى في السماء، وليس أحد إلا وقد وُكّل به ملكان يدفعان عنه ويكلآنه (يحرسانه) حتى يجيء قدره، فإذا جاء قدره خليّا بينه وبين قدره، وإن عليَّ من الله جُنة (وقاية) حصينة، فإذا جاء أجلي كُشف عني، وإنه لا يجد طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

حقيقة التوكل

جعل الله سبحانه وتعالى لهذا الكون قوانين، وبها يحكم الكون أي (الخلق).

١- النار تحرق الأشياء، وإذا أراد الخالق لا تحرق، كما أنجى الله إبراهيم عليه السلام منها.

٢- السكين تقطع الأشياء، وإذا أراد الله لا تقطع كما لم تقطع إسماعيل عليه السلام.

٣- الإنسان يخلق من أب وأم، ولكن الله خلق عيسى عليه السلام بدون أب.

٤- الطفل الرضيع لا يتكلم، ولكن الله سبحانه كسر هذا القانون، وتكلم في المهد عيسى بن مريم، وصاحب جريج، وابن امرأة مرضعة. الحديث (البخاري ومسلم).

٥- الميت لا يحيا، ولكن الله سبحانه أحيا الموتى.

الأسباب

هناك قوانين لكل شيء في الوجود، وتسمى هذه القوانين بالأسباب، ونحن نؤمن بأن الله أوجدها وهو على كل شيء قدير.

ويسير الناس (مؤمنهم وكافرهم) وفق هذه الأسباب، لا يستطيعون أن يكسروها أو يتجنبوها أو يتجاوزوها.

المؤمن يعتقد أن الذي خلق هذه الأسباب (القوانين) قادر إن شاء أنفذها، وإن شاء أوقفها.

أما الكافر فيرتبط بالقوانين، ولا يعتقد بكسرها على الله سبحانه.

ولا يمكن للمؤمن أن يترك الأسباب المؤدية للنتائج، ولكنه لا يربط النتائج بها، ولذلك قالوا:

ترك اتخاذ الأسباب معصية، والاعتقاد بحتمية النتائج وربطها بها شرك.

مثال: من زرع حصد، ومن لم يزرع لم يحصد، ولكن الاعتقاد بأن الله قادر على أن يخلق ألف سبب مانع للنتيجة. هذا هو التوكل على الله، وأخذ السبب عمل من الإنسان المتوكل.

ومثل الزرع، الدراسة، والتخطيط، والأكل، ولكن لا حول لنا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

توزيع الجهود للنماء هو الأخذ بالأسباب، والنتائج مقدرة بأمر الله.

القوانين (الأسباب) قسمان:

١- قطعية، ثابتة لا بد منها ليأخذ بها الإنسان لتكون النتائج.

٢- ظنية، يغلب على الظن أن النتائج تقع بها.

وإليك هذا التفصيل:

الإنسان والعمل

إن العمل: أي الأخذ بالأسباب، قال العلماء فيه: إن أي عمل يعمله الإنسان يمكن أن يصنف في واحد من أربعة أصناف.

- الصنف الأول:

عمل يقصد به جلب منفعة (نفع النفس أو الناس) ليست موجودة في شيء غير موجود:

رجل لا يملك مالاً ويعمل ليحصل عليه، أو يحصل على بيت أو زوجة أو شهادة!

فكيف تجلب المنفعة؟

قانون قطعي

رجل جائع وضع أمامه طعام، لا بد عليه أن يبذل الجهد ليحصل على المنفعة فيأكل حتى يشبع، ويمد يده إلى الطعام ثم يضعه في فمه، ولا يتردد في هذا العمل لأن التردد مرفوض إذ لا يأتي مَلَك فيدخل الطعام إلى فمه، وهذا قانون قطعي.

ومثل الجائع الطالب الذي يدخل الجامعة عليه أن يتقدم بأوراقه ويتقدم إلى الامتحان، بعد أن يكون قد استعد له حتى ينال الشهادة المرجوة، فهذا العمل وأمثاله كالمزارع عليه أن يزرع؛ قانون قطعي يجب الأخذ به.

كمال التوكل في هذه المسالة وأمثالها

الإيمان بأن الله خلق هذا الطعام، وهو الذي خلق الإنسان، وخلق يده التي تتحرك، وهو الذي خلق القدرة والقوة بها، وهو الذي خلق العلم الذي تعلمه بأن هذا يؤكل. إلخ.

ثم الاطمئنان بأن الله قادر أن يسمح له بإتمام هذا العمل لجلب المنفعة (الشبع) أو بعدم إتمامه بألف سبب يمكن أن يقع آنياً من مرض أو حادثة آنية أو أي مانع آخر، فيمنع من حصول النفع من الأكل، أو

الـزرع أو النجـاح. وهـذا قانـون ظنـي.

فالتوكل على السبب القطعي شرك! فما بالك بالذي يتوكل على السبب الظني؟!

بل وأسوأ من ذلك أن يتوكل الإنسان على أمر ليس سبب أصلاً، كالذي يستغيث بالقبور.

التوكل على الأسباب اليقينية شرك، والتوكل على الظنية شرك أكبر، والتوكل على ما ليس بسبب أعظم من ذلك.

اتخاذ السبب يكون لدى المسلم بدافعين

١- الانسجام مع سنن الله الكونية.

٢- طاعة الله في أحكامه التشريعية، لتحقيق مطالب الحياة، مع اجتناب الأسباب المحرمة وهو وسيلة لتحقيق ثواب الآخرة.

الفروق بين المسلم والكافر

ثبت أن النبي ﷺ كان يأخذ بالأسباب، والصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قد أخذوا بالأسباب وعملوا، ولا يعد هذا تناقضاً مع التوكل أبداً.

ويختلف المؤمن عن الكافر في الفروق الثلاثة التالية:

١- يؤمن المسلم أن الله يسّر كسبه من الشبع والنجاح وبلوغ المراد وغير ذلك ودبّر أسبابه، ولا يعتقد الكافر بذلك مطلقاً.

٢- لا يتوكل المسلم على قدرته أو كفاءته، وإنما يتوكل على خالق القدرة والكفاءة، والكافر يقول: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ (القصص: ٧٥) كما قال قارون عن كنوزه.

٣- لا يخاف المؤمن من الفقر وإنما يستعيذ منه فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»، لأنه لا يتوكل على الرزق، بينما الكافر يتوكل على الرزق ويخاف الفقر: ﴿إِنَّ الْأِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ❖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ❖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ❖ إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (المعارج:١٩-٢٢).

والمسلمون في قضية التوكل قسمان:

١- قسم يتخذ الأسباب طاعة لله فيأخذ نتائج أفضل من الذي يأخذ الأسباب فقط (من غير المؤمنين).

٢- وقسم يتخذ الأسباب طاعة لله ويضيف صدق التوكل على الله (بالاستغفار، والدعاء والصلاة، وإخلاص النية) فيأخذ من النتائج أعظم.

الغنى والفقر

ليس الغنى والفقر بيد الإنسان، إنما هما قدر من الله سبحانه، يقول تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:٢٦).

فكم من غني يموت فقيراً لا يعرفه أحد، كالمعتمد (أحد حكام الأندلس) لما سُجن في (أغمات) ثم أُفرج عنه فلم يكن يعرفه أحد حين يتصدق عليه.

وكم من فقير يصبح غنياً كالحاجب المنصور الذي كان يؤجر دابته (حماره) للناس في إفريقية (تونس والجزائر)، ثم أصبح من أعظم حكام الأندلس.

بينما الكافر يحكي الفقر لأن الشيطان يخوفه منه ويَعده الفقر.

لا يخاف المتوكل من الفقر، ولا يبطر مع الغنى، لأن كليهما بيد الرزاق.

٤- لا يتعلق المؤمن إلا بالله دون تردد، فلا يمارس التقوى من أجل الرزق، فالتقوى خالصة لله، والرزق نتيجة، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ❖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ.﴾ (الطلاق: من الآية ٢-٣).

وينطلق لسانه بالدعاء قائلاً: اللهم بك أعوذ أن يكون فقري في ديني، أسألك النفع الذي يصلحني بطاعتك، وأسألك بركة الرضى بقضائك، وأسألك القوة على الطاعة والرضا يا أرحم الراحمين.

أما الكافر فيتعلق بوسوسة الشيطان، ويقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا، إذ يتعلق بالأسباب.

قصتان

١- قصة السمكة من كتاب وحي القلم للمرحوم مصطفى صادق الرافعي الجزء الثاني:

قصة رائعة اقرأها أيها القارئ الكريم من المصدر المذكور، (وهذه القصة بتصرف).

قص في مجلس وعظ أحمد بن مسكين الفقيه البغدادي سنة ٢٣٠ هـ في مدينة بلخ بخراسان، فقال:

إني امتحنت بالفقر في بغداد سنة ٢١٩ هـ، ومر يوم وقد طوانا جوع، فلي امرأة ولي طفل صغير، فكنت بثلاثة بطون خاوية لمكانة زوجتي وابني ورؤيتهما جائعين.

فقررت أن أبيع داري يوم الغد، فخرجت إلى صلاة الصبح، ورفعت يدي بالدعاء:

اللهم بك أعوذ أن يكون فقري في ديني، أسألك النفع الذي يصلحني بطاعتك، وأسألك بركة الرضى بقضائك، وأسألك القوة على الطاعة والرضا يا أرحم الراحمين.

حتى إذا ارتفعت الشمس خرجت ولا أدري أين أذهب؟ حتى لقيني (أبو نصر الصياد) فقلت له:

يا أبا نصر، أنا على بيع الدار، فأقرضني شيئاً يمسكني على يومي بالعيش وأوفيك بعد أن أبيع.

قال: خذ هذا المنديل إلى عيالك، وأنا على أثرك لاحق.

وناولني منديلاً فيه رقاقتان (رغيفان) بينهما حلوى، وقال: إنهما من بركة الشيخ.

فقلت: من الشيخ وما القصة؟

قال: وقفت أمس على باب هذا المسجد فمر بي بشر الحافي (توفي ٢٢٧هـ) فسألني: ما لي أراك هنا؟

قلت: ليس في البيت دقيق ولا خبز ولا درهم ولا شيء يباع.

فقال: اللّٰه المستعان، تعال معي واحمل شبكتك.

ولما وصلنا إلى الخندق (مكان يُصطاد فيه) فقال: صلّ ركعتين، ثم سمّ اللّٰه وألق الشبكة.

ففعلتُ، وقلت له: ساعدني. فجر معي الشبكة، فإذا فيها سمكة عظيمة، فقال: خُذها وبعها واشتر ما يصلح عيالك.

وابتعت لأهلي، فلما أكلت وأكلوا ذكرته فأخذت هاتين الرقاقتين وبينهما هذه الحلوى، وطرقت الباب

فقال: من؟

قلت: أبو نصر الصياد.

قال: افتح وضع ما معك هناك، وادخل.

وحدثته فقال لي: لو أطعمنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكة، اذهب: كُلْه أنتَ وعيالك، وها إني أعطيك إياه.

ثم تابع أحمد بن مسكين فقال: ومضيت إلى البيت وفي الطريق لقيتني امرأة معها صبي، وقالت لي: هذا طفل يتيم جائع، فأطعمه شيئاً، يرحمك اللّٰه.

قال: فتخيلت أن الجنة تعرض نفسها على من يُشبع هذا الطفل وأمه.

فلم أجد للزوجة والولد معنى، بل عرفتُ معنى هذه المرأة المحتاجة وطفلها.

ودفعت ما في يدي للمرأة، وقلت لها:

خذي هذا وأطعمي ابنك، وواللّٰه ما أملك بيضاء ولا صفراء، وإنّ في داري لمن هو أحوج هذا الطعام.

وقلت في نفسي: أما أنا فأطوي إن لم أصب طعاماً، أما كان أبو بكر رضي اللّٰه عنه وغيره من الصحابة يصبرون على الجوع؟ ولكن مَن للزوجة والولد؟

ولكني تذكرت كلمة: لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة، فأنستْني ما أنا عليه، فجلست على طرف أفكر في بيع الدار.

فمر بي أبو نصر الصياد فقال: يا أبا محمد، ما يجلسك هنا وفي دارك الخير والغنى؟

فقلت: سبحان الله، من أين خرجت السمكة؟

قال: إني إلى الطريق إلى بيتك، ومعي شيء من القوت لعيالك ودراهم، وإذ برجل معه أحمال يسأل الناس عن أبيك أو أحد من أهله، فقلت: أنا أدلك. وسألته عن شأنه.

فقال: إنه كان تاجراً فأفلس، وكان قد استدان من أبيك من ثلاثين سنة وذهب إلى خراسان، فنمتْ تجارته هناك واغتنى، فأراد أن يتحلل، فجاء بالمال وما كان يربحه إلى أبيك.

ثم تابع أحمد بن مسكين فقال: وصلت إلى داري فإذا مال كثير، فقلت في نفسي: لو أطعمنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكة.

ثم اتجرت بالمال، وبحثت عن المرأة وابنها فأجريت عليهما راتباً.

وجعلت أصرف في وجوه المعروف والإحسان.

ثم كانت ليلة فرأيت نفسي في يوم القيامة، وجيء بي لوزن أعمالي، فإذا تحت كل حسنة شهوة خفية من شهوات النفس، فمحتها ولم يبق شيء لي.

وسمعت صوتاً يقول: بقي له هذا، وكانت الرقاقتان (الرغيفان).

ووضعتا في الميزان، فطار نصف الثواب لأبي نصر الصياد.

ثم وضع جوع امرأتي وولدي في ذلك اليوم في الميزان.

ثم وضع دموع تلك المرأة المسكينة التي أحسنت إليها فإذا هي كالبحر، وإذا سمكة هائلة قد خرجت حتى سمعت صوتاً يقول: قد نجا أحمد بن مسكين.

وصحت صيحة استيقظت لها، فإذا أنا أقول: لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة.

عبر من القصة

١- تحمل الجوع من دأب الصالحين، وكانوا يربون أهاليهم على ذلك.

٢- الإيثار بالشيء مع أشد الحاجة إليه منزلة لا يعدلها شيء.

٣- لا شيء أعظم عند الله من إدخال الفرح إلى قلب محتاج.

٤- من حيث لا يحتسب الإنسان يأتيه رزقه ونصيبه بشرط أن يتقي الله.

٥- إيثار ما عند الله يقين ما بعده يقين لدى الصالحين.

٦- الفقر والغنى ابتلاء ولكل حالة واجباتها ومتطلباتها.

٢- قصة رجل صالح (يعقوب الأفطح) يقول:

كنت أتعبد الله في الحرم معتكفاً، فانقطعت أموالي، ولم تطاوعني نفسي أن أقوم فأسأل، فظللت أيام لا آكل ولا أشرب إلا من ماء زمزم.

ولكن اشتدّ بي الجوع، فخرجت أبحث عن طعام، عن أي شيء يدخل فمي لأمضغه فقط! فوجدت حيواناً ميتاً، فعافت نفسي من أكله، وقد رفعت إلى فمي جزءاً منه، فرميته، فتذكرت: ويرزقه من حيث لا يحتسب، فرجعت إلى الحرم، فإذا برجل يأتي ومعه إناء كبير عليه غطاء، فوضعه أمامي وقال: هذا لك.

فقلت: لم أتيت به إلي؟

قال: كنت في سفينة وهاجت عاصفة بحرية عليها، فنذرت إن نجاني الله لأتصدقنّ بطعام لأوّلِ من أراه معتكفاً في الحرم، وأنت أول معتكف ألتقي به.

الصنف الثاني من الأعمال

عمل يقصد به المحافظة على المنفعة

ولعل أبرز مثال عليه: هو الإدخار، فهل يجوز للإنسان أن يدخر؟ وهل هذا الإدخار ينافي التوكل؟

وذلك عن طريق إيداع الأموال في مصرف للحفاظ عليها، أو تخزين طعام وغيره لمدة بغاية الحاجة إليه في المستقبل.

فقد فصل العلماء في ذلك تفصيلاً جميلاً حين تحدثوا عن الزهد.

الزهد

ما هو هذا الزهد؟

١- الأصل ألا يبقي الزاهد شيئاً عنده، وإنما يأخذ قدر حاجته ليوم وليلة.

وهذا للإنسان الفرد الذي لا يعيل أسرة، لأنه مسؤول عن نفسه فقط، واعتمد القائلون به على حديث رسول الله ﷺ: «لو كان عندي أُحدٌ ذهباً، لأحببت أن لا تأتي ثلاث، وعندي منه دينار، ليس شيئاً أرصده (أدخره) في دَيْن عليّ، أجد مَنْ يقبله». (البخاري، ومسلم).

وعلى حديث السيدة عائشة رضي الله عنها حين ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: بقي كلها إلا كتفها». (الترمذي).

فهذه هي المثالية العُليا في التوكل، بأن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة.

أن يتقصد المسلم في مطالب نفسه، وأن يجعل مما يملك متسعاً لأهل الحاجة من المسلمين.

الزهد عند أحمد بن حنبل -رحمه الله-

ثلاثة أقسام:

١- ترك الحرام هو زهد العوام.

٢- ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص.

٣- ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين.

٢- الادخار

تحدث العلماء عن الحد الأدنى والأعلى في مسألة الادخار.

فالحد الأدنى هو يوم وليلة حتى لا يسأل الناس طعاماً أو حاجة، كما سبق ذكره، أما الحد الأعلى فهو الادخار لمدة سنة، حتى لا يتعلق به القلب، ويتوكل على غير الله سبحانه، وما بين هذين الحدّين هو الادخار، وكل هذا بالنسبة لمن لا يُعيل أحداً، وقد ثبت أن النبي ﷺ قد سمح لادخار سنة، وادخر لعياله لمدة سنة كما في صحيح البخاري ومسلم.

يدخر الفرد إلى اليوم والليلة، والمعيل من بعد ذلك. إلى السنة.

الادخار بشرط:

ولكن يجب ألا يتعلق القلب بالمدَّخَر، إنما يتعلق: بأن الرزق من عند الله رب العالمين، لأن من تعلق بما يدخر ولو كان ليوم أو يومين فقد نافى التوكل، وكذلك العكس، فمن أنفق أمواله كلها باسم التوكل حتى لا يتعلق قلبه أيضاً بالأسباب، وإنما يأخذ بها من الدنيا فيعيش قلقاً.

وقد ورد عن الرسول ﷺ: «لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس». (البخاري).

فالادخار إذن يكون لأداء الحقوق ابتداء من حق نفسه، وعند ذلك يكون الزهد: هو انصراف الرغبة عن شيء إلى ما هو خير منه.

فالزهد زهد القلب، لا زهد الترك من اليد، وإن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الزاهد الأول كما رأيت.

الإسلام يوصي بأن يكرم المرء نفسه، ثم أهل بيته، ثم ذوي رحمه، ثم سائر الناس.

الغنى والزهد

قد يجتمع الغنى والزهد معاً في المؤمن، فقد كان عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما من كبار الأغنياء، ولكنهما كانا زاهدين فيما يملكان.

الصنف الثالث:

هما: دفع الضرر المحتمل:

يخاف الإنسان على نفسه، وعلى عرضه، وعلى دينه، وعلى عقله، وعلى ماله.

وعلى المسلم أن يأخذ من الأسباب ما يدفع به الضرر عن هذه الضرورات الخمس (النفس، العرض، الدين، العقل، المال) والأخذ بها لا ينافي التوكل.

فلا يجوز له أن ينام تحت حائط يكاد يقع، أو بين مكان فيه ثعابين قائلاً: أتوكل على الله وأنام.

نحن نعتقد بقدرة الله على الحماية، ولكن اختبار الله -حاشا- بهذا العمل (النوم) في مكان محفوف بالخواطر دون الحيطة والحذر منهيٌ عنه، ويقع الفاعل في العصيان.

لا بد من أخذ الأسباب لحفظ الضرورات الخمس.

الصبر والتوكل

يقول تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ❖ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ (المزمل: من الآية٩-١٠).

ويقول على لسان الرسل: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم: من الآية١٢).

ويقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل:٤٢).

صبر الابتلاء

وهذا الصبر خاصة عندما يتعرض المسلم للابتلاء من أجل دينه، ويُصب عليه من الفتن والأذى.

فهناك رخصة، وهناك عزيمة، وهناك صبر بحسب قوة المسلم أو ضعفه، وغناه أو فقره.

الرخصة: أن يخرج الضعيف ويهاجر أو ينطق -آخذاً بجوازه- بكلمة الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن لا يتسرع إلى هذا التساهل والتنازل، وإنما عندما يبلغ الأذى والضرر منه مبلغاً كبيراً كما حدث لعمار بن ياسر رضي الله في مكة.

العزيمة: أن يبقى ثابتاً وكأنه يتحدى كل صنوف الأذى كما فعل عبد الله بن أبي حذافة السهمي لما أسره الروم، وقصته مشهورة تذكر كثيراً (وقد ذكرتها في فصل المحبة).

والصبر: كما صبر بلال رضي الله عنه، وسمية أم عمار وغيرهما وقد أمر الله رسوله ﷺ فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: من الآية٣٥)

والصبر أعم في كل ما يعرض للإنسان المسلم من أجل دينه، في حياته، في أموره، ومن القضاء والقدر، ومن المصائب والابتلاءات.

والصبر سمة المؤمن، في كل شيء يصيبه، أخرج ابن سعد والبيهقي عن عبد الله بن خليفة قال:

كنت مع عمر رضي الله عنه في جنازة، فانقطع شِسعه (رباط نعله) فاسترجع ثم قال:كل ما ساءك فهو مصيبة.

فقيل له: أتسترجع في قِبال نعلك؟

قال: إن كل شيء يصيب المؤمن يكرهه فهو مصيبة.

١- حيث يتذكر المسلم حب الله له ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ . فلا يتشكك في مسألة التوكل قط، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر: من الآية٣٦).

٢- ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ (العنكبوت: من الآية١٧)، فلا يريده المسلم من صاحب عمل، ولا من ملك أو أمير، ولا من أخ، فالرزق من عند الله، ولله خزائن السموات والأرض.

٣- ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ (الفرقان: من الآية ٥٨)، فلا يعلّق المسلم قلبه بأحد، وإنما بالله سبحانه، وهل يجوز لمسلم أن يتوكل بغير الله بعد تلاوة هذه الآيات ومعرفة معناها، وبعد الرضى بالقضاء والقدر، قال الخوّاص رحمه الله: ما ينبغي للعبد بعد هذه الآيات أن يلجأ إلى أحد غير الله؟!

التوكل أمر مربوط بالصبر ومربوط بالتوحيد.

التفويض والتوكل

إن الوكالة تعني التفويض، يقال فلان وكّل (فوّض) أمره إلى فلان المحامي، واعتمد عليه، وأعطاه حق التصرف فيه.

ما هي شروط التوكل (التفويض)

١- اطمئنان القلب وذلك حين يثق المرء الموكِّل بالموكَّل، أي أن هذا المحامي مثلاً سيتصرف صحيحاً بالقدرة والعلم.

٢- إشفاق الموكَّل بموكِّله، أي أن المحامي حريص عليه، وعلى مصلحته.

٣- فصاحة الوكيل، فعند المحامي البيان والحجة للوصول إلى الغاية.

ولله المثل الأعلى، وأسئلة ثلاث:

فلنسأل أنفسنا؟ ولنسأل من يوكِّل محامياً؟

١- هل الله أرحم بنا أو به؟ أم ذاك الرجل المحامي؟

٢- هل أسلوب الله وإرشادهُ أعظم؟ أو أسلوب المحامي الإنسان الضعيف؟

٣- هل حفظ الله أعم؟ أم عجز الإنسان المحامي عن الحفظ؟

ويكون الجواب كما قال المتنبي:

ألم ترَ أن السيفَ ينقص قدرُهُ إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

وهل يُقارن مضاء السيف وحِدَّته وقوته بعصا؟! وشتان.

فالمتوكل لا يسأل غير الله، ولا يرد على الله، ولا يدخر مع الله.

المتوكل الحق يعلم أن عناية الله به أعظم من اهتمام الإنسان بذاته، لذلك يفوض إليه.

أسباب ضعف التوكل

سبق ذكر التوكل حق التوكل، ومع ذلك ما هي الأسباب التي تضعف توكل المرء على ربه، فتلك تعود إلى أمرين اثنين:

١- الشك في قدرة الله سبحانه، إذ يشك من يشك أن الله يعلم، أو يشك أن الله رازق، وقد استنكر أويس القرني رحمه الله على رجل سأله أين أكون، وأين أتوجه إلى بلد؟ فأشار إلى الشام، فقال الرجل: كيف العيش هناك؟ (يسأل عن فرص عمل كما يقال).

فقال أويس: أفٍ لهذه القلوب قد خالطها الشك.

وهذا نوع قد يؤدي إلى الكفر، إذ يقتضي الإيمان أن يؤمن بكمال قدرته وصفاته سبحانه، وهذا هو الإيمان الكامل، وهنا ينبري هذا السؤال: لم يشك الإنسان إذن؟

ليس الشك هذا بسبب العلم، وإنما بسبب ضعف القلب، فالقلب من طبيعته الخوف والضعف ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾، فقد يضعف القلب مع قوة في العلم، ولنوضح بمثال:

هل يضر أو ينفع الميت أحداً؟، وهل يستطيع أن يؤذي أحداً؟

الجواب: كلا، وهو من علم اليقين لدى الإنسان، إي إنسان.

فلم إذن يخاف المرء أن ينام معه في غرفة واحدة؟ فهذا ضعف في القلب لا ضعف في العلم.

وما أراد إبراهيم عليه السلام -وهو الذي يعلم علم اليقين بأن الله قادر على إحياء الموتى- حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ إلا اطمئنان قلبه، ولم يكن شكاً وإنما ألا يدع أيّ مجال للاهتزاز القلبي الذي هو من طبيعة البشر، ولأمرٍ ما كان الرسول ﷺ يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». (الترمذي).

التوكل الكامل إذن اطمئنان العلم واطمئنان القلب.

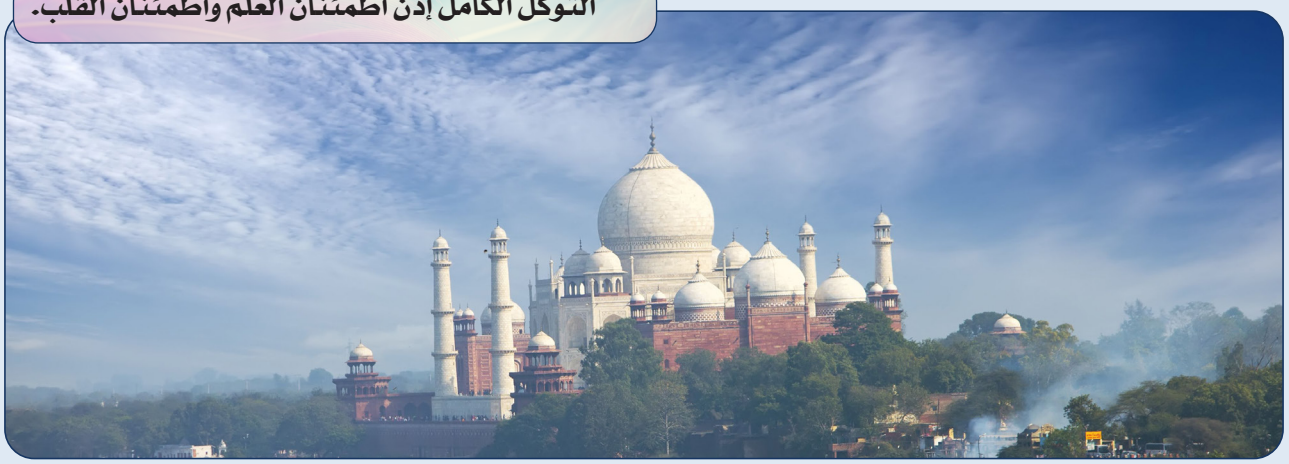

٢- الشك في أن الله هو الرزاق، وهذا أيضاً نوع من أنواع الكفر، فقد يتزعزع القلب ويظن أن السبب الذي (عمل به) جلب له الرزق، أو الخوف من عدم العمل أن يذهب عنه رزقه.

وحتى لا يتعرض القلب إلى مثل هذا الاضطراب في الفهم والثقة فقد كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك شيئاً أعلمه، وأستغفرك لما لا أعلمه».

وقد يبذل الإنسان أقصى جهده أو يوسط إنساناً في أمر من أموره ويبقى قلبه معلقاً به، فهذا شرك خفي.

فلتكن القناعة للإنسان المسلم أن التدبير والأخذ بالأسباب لا يضرُّ ولا ينفعُ، فالضار والنافع من أسمائه سبحانه وتعالى.

مثال:

يأخذ المسلمون بأسباب المعركة، من أسباب مادية كالأسلحة والعتاد، ومن أسباب فكرية كالمخططات الفكرية للتنفيذ، ومن أسباب إدارية، وتعليمية وعمرانية، ومن أسباب معنوية كالدعاء والتضرع وإلحاح الطلب من الله سبحانه، فيجاهدون، ويحملون السلاح يقاتلون ويخططون، ومع هذا كله يؤمنون الإيمان الكامل بأن النصر من عند الله لقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران: من الآية١٢٦).

وإلى هذا المعنى أي الأخذ بالتدبير والسبب أشار النبي ﷺ على الأعرابي الذي دخل المسجد النبوي ليصلي، فترك بعيره دون أن يربطه متوكلاً -على زعمه- فقال له ﷺ: «اعقلها وتوكل». (الترمذي).

كلمتان في باب التوكل: خذ بالسبب، وتوكّل عليه سبحانه.

الصنف الرابع: إزالة الضرر

كالمريض الذي يبحث عن العلاج، فهل طلب العلاج ينافي التوكل؟

وقد يحتج قائل بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء:٨٠)

أنه لا داعي للبحث عن طبيب، أو دواء، فالله هو الشافي!!

العلاج:

صنف العلماء العلاج إلى قسمين:

١- علاج مضمون قطعياً أثره، كالأكل لمرض الجوع، وإرواء الماء لمرض الجفاف، وكذلك لمرض شدة الحرارة.

٢- علاج غير مضمون نتائجه، فقد ينجح العلاج في إزالة المرض أو لا يزيله، والأخذ به مطلوب مع ذلك، لأنه من باب الأخذ بالسبب، فقد ورد في الحديث: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل معه دواء». (البخاري).

وقد ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يرفعه: «أن الله عز وجل لم ينزل داءً إلا وأنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله». (أحمد بن حنبل، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي).

وفي صحيح مسلم: «إن لكل داء دواءٌ، فإذا أُصيب دواء الداء بَرَأ بإذن الله».

التداوي

فليس هو الأصل في مسألة التوكل، والتداوي لا يتنافى مع التوكل، وإنما هو كالأخذ بسبب للرزق والرازق هو الله، فالشافي هو الله سبحانه، وكان رسول الله ﷺ يداوي، فقد داوى سعد بن معاذ من إصابته يوم الخندق، فقد قطع له عرقاً ليخرج الدم الفاسد من الجسد.

ثم كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يتداوون إذ أورد البخاري عن خالد بن سعد قال: خرجنا ومعنا غالب بن أبجر، فمرض في الطريق، فقدمنا المدينة وهو مريض، فعاده ابن أبي عتيق، فقال لنا: عليكم بهذه الحبيبة السوداء، فخذوا منها خمساً أو سبعاً، فاسحقوها ثم اقطروها في أنفه بقطرات زيت في هذا الجانب، وفي هذا الجانب، فإن عائشة أم المؤمنين حدثتني: أنها سمعت النبي ﷺ يقول: « إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل إلا من السّام، قلت: وما السام؟ قال: الموت».

وقد أمرت الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي لأنه من مباشرة السبب، فالله خلق الداء وخلق الدواء.

وإن كان بعض الصحابة قد تركوا التداوي لحالات خاصة بهم، وليس ذلك هو الأصل في ترك العلاج.

فإن أبا بكر رفض الدواء، ولكن فعل ذلك حينما جاءته علامات الوفاة، فإن استخدام العلاج في تلك اللحظات لا تجدي، وأصبح المظنون في نفع الدواء.

يأخذ الإنسان المسلم من الدواء معتقداً أن الشافي هو الله، وليس ما أخذه هو من دواء.

الشكوى والتوكل

ذكر العلماء في هذا البحث (بحث الشكوى وهل تنتفي مع التوكل) كلاماً جميلاً أوجزه بذكر أنواع الشكوى، فمنها:

١- أن يشتكي أحد ساخطاً كقوله: لم فعلتَ بي يا رب هكذا؟ وأمثال هذه من الكلمات، هي هجر من الكلام، لا يجوز الاعتراض على الله سبحانه، وهي صورة من أشكال الكفر -والعياذ بالله- ولا يحل لمؤمن أن يسمح للسانه أن ينطق مثل هذا الكلام، والرجل الجاهل يشكو إلى البشر.

٢- أن لا يشتكي، ولكن يكثر التذمر فيتأفف مما يدل على عدم رضائه بالقضاء والقدر، وهذه أيضاً من الحرام، لأن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، فالتذمر الكثير ينافي الرضا به، ولن تزيل الشكوى المرض والفقر.

٣- أن يشتكي أحد لغير الطبيب أو لغير من يراعي أحواله!

فما الفائدة في ذلك؟ وإنما يذهب أجر الصبر، لأن الأصل الامتناع عن الشكوى إلا لله سبحانه، كما ذكر الله عن يعقوب ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يوسف: من الآية٨٦)، والعارف بالله إنما يشكو إلى

الله وحده.

والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى، ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فقراً وضرورة، فقال: يا هذا -والله- ما زدتَ على أن شكوت من يرحمُك إلى من لا يرحمك.

وقد قال الشاعر:

وإذا شكوتَ إلى ابْنِ آدمَ إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

أما الشكوى لطبيب أو من يعين على مسألته كما قال الشاعر:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

فالأصل عدم الشكوى، وإنما يكون وصف الحال للطبيب أو غيره ليصل بظنه إلى دواء أو علاج أفضل من الشكوى إليه متذمراً.

وحاذاه: أي مشى بجانبه يشفع له في أمره أو يعينه في شكواه.

ولسان المسلم في الشكوى وإن كان ينطق بها لكن قلبه يقول:

شكوت وما الشكوى لمثلي عادة ولكن تفيض النفس عند امتلائها

فتجوز الشكوى للطبيب وللمعين ولمن يمكن أن يدله على علاج، وهذا لا ينافي التوكل، وإما في غير هذه الحالة فإنها تنافي التوكل.

لا يشكو المسلم المتوكل على الله أمره أو بلاءه لأحد فينالَ أجر الصبر الجميل.

الأنين

حتى الأنين عدّه علماء المسلمين من الشكوى كأن يتأوه (آه) من الألم أو المصيبة. وغيرهما.

فإن الأنة لا تذهب الداء ولا تزيل المصيبة، وإنها تنقص الأجر والثواب.

فلنتوكل على الله في السر والعلن، ولا نعرف نحن أين يكون الخير، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١٦).

والله أعلم، وهو أرحم بنا من أنفسنا، وقد قال عمر رضي الله عنه : والله لا أبالي أأصبحت على غنى أم أصبحت على فقر، فإني لا أعلم أين الخير.

حقيقة التوكل الرضا بالقضاء والقدر، وكفى بالله وكيلاً.

الفصل السابع

التقوى

الحمد لله رب العالمين الذي جعل للمتقين مفازاً، حدائق وأعناباً، وكواعب أتراباً، وكأساً دهاقاً، لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً.

أحبَّ الله المتقين ورزقهم حبه، وأسبغ عليهم وافر فضله، يتلذذون بالقرآن، ومثله معه، أنار قلوبهم بهداه، وحبّب إليهم فعل الطاعات، وكرّه إليهم فعل المنكرات.

وصل اللهم وبارك على إمام المتقين نبي الهدى والرحمة محمد بن عبد الله ﷺ أتقى الناس، وأورع الناس، وأعرف الناس بمولاه.

وعلى آله وأزواجه وأصحابه نجوم الهدى وأئمة التقوى، وعلى من تبعهم إلى يوم الدين.

معنى التقوى

للتقوى معان عديدة أوجزها فيما يلي:

١- مأخوذة من الاتقاء، وهو ما يكون من العمل حاجزاً بين المرء وبين ما يكره، أو يخاف، أو يحذر، وهذا من المعنى اللغوي.

٢- سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبيّ بن كعب عن التقوى؛

فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟

قال: نعم.

قال: فما عملت فيه؟

قال: تشمّرت وحذرت.

قال: فذاك التقوى.

وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فنظّمه وقال:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرها ذاكَ التقى
واصنع كماشٍ فوق أر ضِ الشوكِ يحذَرُ ما يرى
لا تحقرنَّ صغيرة إن الجبالَ من الحصى

٣- الخوف من الله والرجاء منه لأنه سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (المدثر: من الآية٥٦)، قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أهلٌ أن أُتقى، فمن اتقاني فلم يجعلْ معي إلهاً، فأنا أهلٌ أن أغفر له». (الترمذي).

وقال قتادة رحمه الله: هو سبحانه أهل التقوى، هو أهل أن تُتقى محارمه.

٤- التقوى تشمل الدين كله، رحبة الرجاء، كثيرة العطاء، وهي جماع الخير كله، قيل لأبي الدرداء رضي الله عنه: إن أصحابك يقولون الشعر، وأنت ما حفظ عنك شيء!

فقال:

يريد المرء أن يأتي مُناه ... ويأبى الله إلا ما أراد

يقول المرءُ فائدتي ومالي ... وتقوى الله أفضلُ ما استفاد

وقال أحد العلماء:

لست مغالياً إذا قلت إن التقوى جماع الخير كله لأنها وصية الله في الأولين والآخرين، ومناط الهداية في كلام رب العالمين.

٥- التقوى قضية قلب، وليست مظهراً أو شكلاً، فقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره» (الشريف) ثلاث مرات. (مسلم).

وقال: «ألا وإن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» (البخاري ومسلم).

التقوى قضية قلبية متعلقة بأصل الإيمان، ومتعلقة بالتوحيد الخالص.

التقوى

١- أكثر ما تُدخل الجنة

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ (الزمر: من الآية٧٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور:٥٢)

وقد ورد في بعض الأثر أن التقوى أكثر ما تدخل الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ تقوى الله وحسن الخلق».

٢- هي أصل القبول

كل أعمال الإنسان لا قيمة لها إن لم تغلّف بغلاف التقوى، قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (الحج: من الآية٣٧).

أخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها، قالت: والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة في

قولـه تعالـى: ﴿أَنَّهُـمْ إِلَـى رَبِّهِـمْ رَاجِعُـونَ﴾ (المؤمنـون: مـن الآيـة٦٠) ، أي الـذي يسـرق ويزنـي (هـل المقصـود الـذي يفعـل المعاصـي والكبائـر وهـو خائـف مـن الله؟) قـال: لا يـا بنـت أبـي بكـر، ولكنـه الـذي يصلـي ويصـوم ويتصـدق وهـو يخـاف الله عـز وجـل، يخـاف ألا يُقبـل منـه.

وعـن أبـي الـدرداء رضـي الله عنـه قـال: لأنْ أسـتيقن أن الله قـد تقبـل لـي صلاة واحـدة أحـب إليّ مـن الدنيـا ومـا فيهـا.

أن يقدم الإنسان عمله وهو خائف يتقي الله عز وجل ألا يقبل منه؛ هو التقوى.

٣- هي وصية الصالحين

كانـت التقـوى وصيـة الصالحـين بعضهـم بعضـاً، قـال أبـو الحسـن علـي بـن المدينـي (شـيخ البخـاري): قـال لـي أحمـد بـن حنبـل -إمـام أهـل السـنة-: إنـي لأشـتهي أن أصحبـك إلـى مكـة، ومـا يمنعنـي مـن ذاك إلا أملَّـك أو تملّنـي!

قال: فلما ودعته، قلتُ: يا أبا عبد الله، توصيني بشيء؟

قال: نعم، الزم التقوى قلبك، وانصب الآخرة أمامك.

وقد أوصى عون بن عبد الله -الثقة العابد- أما بعد:

فإني أوصيك بوصية الله:

التي حفظُها سعادةٌ لمن حفظها.

وإضاعتها شقاوةٌ لمن ضيّعها.

رأس التقـوى الصبـر، وتحقيقهـا العمـل، وكمالهـا الـورع، وإن تقـوى الله شـرطه الـذي اشـترط، وحقـه الـذي افتـرض، والوفـاء بعهـد الله أن تجعـل لـه، ولا تجعـل لمـن دونـه.

٤- هي للتعلم والتعليم

قال معروف بن الفيرزان: سمعت بكر بن خنيس يقول:

كيف تتقي؟ وأنت لا تدري ما تتقي!

إذا كنت لا تحسن أن تتقي أكلت الربا، ورأيت المرأة ولم تغضّ عنها، ووضعت سيفك على عاتقك، ولا تعرف كيف تعمل به، ومجلسي هذا ينبغي لنا أن نتقيَه، فقد يكون فتنة للمتبوع، وذلة للتابع.

وكان الصالحون يسأل بعضهم بعضاً عن التقوى حرصاً للتعلم، رغم علمهم وتقواهم.

لقي أبو بكر بن عبد الله المزني طلقَ بن حبيب، فقال له: صف لنا من التقوى شيئاً يسيراً نحفظه؟

فقال: اعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، واترك المعاصي على نور من الله، مخافة عقاب الله عزّ وجل.

التقوى درجة عالية

ويحقق تلك الدرجة هاتان الصفتان:

١- العمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله.

٢- تركُ معصية الله على نور من الله تخاف عقوبة الله.

ويدخل في هذه الدرجة: عمل الواجبات، ترك المحرمات، وترك الشبهات، فعل المندوبات، وترك المكروهات.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (آل عمران: من الآية١٠٢)

وقال ابن رجب رحمه الله: يدخل فيها جميع فعل الطاعات، وذكر الله سبحانه، فلا ينسى العبد ذكر الله بقلبه لأوامر الله في حركاته وسكناته فيمتثلها، ولنواهيه فيجتنبها.

أن يطاع الله فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، هي الدرجة العليا.

٥- هي منهج الصالحين

التقوى سبب للفوز، وهي منهج لجميع الأنبياء، يقول عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ (النساء: من الآية١٣١).

التقوى أمر ووصية

- **فالله أمر بالتقوى**

فالله أمر بالتقوى، وآيات التقوى تربو على المئات كثيرة جداً في القرآن الكريم. منها:

١- ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٨١)

٢- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء:١)

وقد ذكرت التقوى ثلاث مرات في آية واحدة، وخاصة في موضوع الطعام والشراب، أن تلتزم التقوى فيه، لأن كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به، قال تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:٩٣)

٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ (الأحزاب:٧٠)

وكان الأنبياء والرسل عليهم السلام يحضون على التقوى مقرونة بالتوحيد، قال تعالى عنهم:

﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (النحل:٢)

- **وصية الرسول ﷺ**

١- بل جعلها أساساً لكل شيء في حجة الوداع، فقال: «اتقوا الله، وصلّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة مالكم، وأطيعوا إذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم». (الترمذي).

٢- قال رسول الله ﷺ -وهي وصية عظيمة جامعة لحقوق الله وحقوق عباده-: «يا معاذ (وفي حديث آخر: يا أبا ذر) اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

٣- قيل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم». (جزء من حديث رواه البخاري ومسلم).

قال الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوتُ ولكن قل عليّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

وكان ﷺ يعظ المسلمين بقضية التقوى، يقول العرباض بن سارية: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله، كأنه هذه موعظة مودِّع، فماذا تعهد إلينا؟ قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة» (الترمذي).

٤- وكان صلى الله عليه وسلم يوصي كل جيش أو سرية يرسله بالتقوى.

٥- وكان من دعائه ﷺ: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى». (مسلم والترمذي).

٦- وهي أهم لباس فلا يبيد ولا يبلى، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: من الآية٢٦).

وانكشاف العورات بالدنيا خير من انكشاف العورات والخزي في الآخرة، قال الشاعر:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً وإن كان كاسيا

وكان سلمان الفارسي رضي الله عنه إذا سُئل عن اسمه، قال: ابن الإسلام، وعن كسبه قال: الصبر، وعن لباسه قال: التقوى والتواضع.

التقوى هي بناء المنهج النظري، وأصل الأعمال للإنسان المسلم.

تحقيق التقوى

إذا كانت التقوى بهذه الأهمية، وتلك العظمة، فكيف نصل إليها؟

بل كيف نحققها في نفوسنا؟ ونقيم عليها ذواتنا؟

١- بالإيمان، وقد بدأت السورة الثانية في الكتاب بوصف المتقين، فقال تعالى في أوائل سورة البقرة:

﴿الم ❖ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ❖ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ❖ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ❖ أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة:١-٥). بالإيمان بالغيب وفيه مجموعة من صفات المتقين.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر:٣٣)

الإيمان والصدق هو أصل التقوى، والوصول إليها بهما.

٢- بالأعمال، فقد شملت الآية الكريمة هذه الأعمال العديدة، يقول تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي

الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧).

❖ ومن الأعمال هذه الصفات التي ذكرتها الآية: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ❖ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران:١٦-١٧).

❖ ومن الأعمال الإحسان في العبادة والإنفاق، قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ❖ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ❖ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات:١٦-١٩).

ومن الصفات المهمة للمتقين ذكرتها هذه الآية:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ❖ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ❖ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾(آل عمران: ١٣٣-١٣٥)

تتحقق التقوى بأعمال الإيمان بعد الإسلام.

٣- بترك الشبهات

يعلو الإنسان إلى أعلى درجات التقى عندما يتحقق فيه حديث الرسول ﷺ الذي قال:

«لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين -وفي رواية- لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس فيه حذراً مما به البأس». (الترمذي)، وقال بعض الصحابة: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام. أي كانت تتحقق فيهم صفة الورع.

وقال الحسن البصري رحمه الله: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة.

الابتعاد عن المشتبه المشكوك حتى عن بعض الحلال طريق الحصول على التقوى.

٤- بالعظة بالماضين.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ❖ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٦٥-٦٦).

وأصحاب السبت قرية من بني إسرائيل كانت راحة لهم يوم السبت ثم ابتلوا بالأسماك تظهر يوم السبت، وتختفي في غيره، فاعتدوا بالحيلة لاصطياد السمك، فحق عليهم الجزاء بأن أصبحوا قردة، وذكر القرآن الكريم هذه القصة عبرة رادعة للمخالفين أمر الله في زمانها، وموعظة نافعة للمؤمنين المتقين في جميع العصور.

من التاريخ سبيل الوعظ إلى الخير والابتعاد عن الشر، وذلك هي التقوى.

٥- بالابتعاد عن الكبائر

وذلك بأن يعرفها ويتجنبها، وقد صنف العلماء في ذلك تصانيف مبينين أنواعها وأخطارها، فمنها ترك الصلاة، وشرب الخمر، والزنى، وهنالك كبيرة استهان بها كثير من الناس وهي كبيرة أكل الربا.

إن الآيات صريحة في أن الربا حرام، ونص عليها نصاً، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٣٠)

وقال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾ (البقرة: من الآية٢٧٥).

٦- بالصدق

الصدق بكل ما جاء من الله سبحانه وبلّغه الرسول والرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر:٣٣).

أي تصديق بالله وملائكته والرسل واليوم الآخر وتصديق مع الله ومع الناس.

من دواعي تحقق التقوى، تركُ الكبائر وهي متعددة، وأشهرها الربا الذي يقع فيه كثير.

صفات المتقين

وهذه جملة من صفات المتقين التي وصفهم بها ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

١- لا يفسدون في الأرض ولا يتكبرون ولا يتعاظمون، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:٨٣)

٢- الدعوة إلى الله بالموعظة الحسنة، والاعتدال والصبر، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ❖ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ❖ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل:١٢٦-١٢٨).

٣- اللجوء إلى الله تعالى، وذكره سبحانه عندما تهم بالمتقين وساوس الشيطان أو النفس، فينتبهون ويتذكرون، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١)

٤- الوفاء بالعهود والعقود، وهذا ما يحبه الله، فقال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:٧٦)

٥- مراقبة لسانه والحذر من كلماته، فلا ينطق لسانه بالهذر أو اللغو أو المنفّر من العبارات أو البذيء.

فقد ذكرت الآية الكريمة في باب التقوى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ (الأحزاب:٧٠)

وقد ورد عن الرسول ﷺ ما ينبّه الإنسان إلى كلماته فقال: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه».

وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه. (الموطأ والترمذي).

يقول أحد الصالحين: كم من كلام قد منعنيه هذا الحديث، فتذكرت هذا الحديث ولم أقل كلمات كنت أريد حديثها.

٦- تقوى الله مع الناس ومع الكون حتى مع الحيوانات والبهائم.

فالمتقي يحسب حساب التقوى مع كل كائن، فقد ذكر عن الرسول ﷺ أنه قال: «دخلت امرأة النار في هرة، ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خَشاش (الهوام والحشرات) الأرض». (البخاري ومسلم).

وقد ذكر شراح الحديث أنها كانت تعمل الصالحات.

٧- الحرص على نفسه لأن تكون تقية والحرص على اتباع الأتقياء، وكذلك الحرص على نقل هذه المعاني إلى أهله، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه:١٣٢)

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ (الفرقان:٧٤).

٨- ومن أعظم صفات المتقين التوحيد، ﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ❖ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ (النحل:٥١-٥٢).

٩- وهناك صفة يغفل عنها كثير من الناس حين يظنون أن التقوى صفة الإنسان الزاهد الذي أخذ طرفاً من المسجد وابتعد عن الدنيا، لا هذه، ولكن أعظم صفة المتقي أن يكون مجاهداً في سبيل الله، والجهاد الذي فيه عنف على أعداء الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة:١٢٣).

صفات المتقين كما وصفهم ربهم في كتابه الكريم ونبيه ﷺ في أحاديث، أولئك هم أحباء الله.

ثمرات التقوى

رأينا فيما سبق أن التقوى هي طريق الفلاح والسعادة فلاح الإنسان المتقي، ورأينا أن نلخص أهم ثمراتها في الدنيا والآخرة.

ثمراتها في الدنيا

١- الانتفاع بالقرآن، والفوز بالهداية والإرشاد، فإن كتاب الله: لا ريب فيه هدى للمتقين، فالقرآن يهدي الذي يتقي.

٢- معية الله معه في كل شيء من شؤونه، وفي جميع حالاته في الحياة، يؤيده ويسدده، وينصره ويعينه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا والذين هم محسنون﴾ (النحل: من الآية١٢٨)

٣- الثناء الحسن بين الناس، بعد أن يفيض الله سبحانه من محبته عليه، كما قال: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:٧٦).

والرؤية الصالحة له، فالناس يذكر المتقي بالخير، وله البشرى -الرؤية الصالحة- في الحياة الدنيا، قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه «قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: تلك عاجل بشرى المؤمن». (مسلم).

هذا إن لم يكن يريد العمل ليحصل على حمد الناس له، فإن أراد ذلك فهو مذموم، وذاك من الرياء، لأنما الأعمال بالنيات، وليس لكل امرئ إلا ما نوى.

٤- يُؤتى العلم والوعي في الحياة، ويعلم الهدى من الضلال قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: من الآية٢٨٢).

٥- تسدد له الأخلاق الحسنة، وتصلح أعماله له، وتوجه نظرته إلى الحياة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ❖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ.﴾ (الأحزاب:٧٠- من الآية٧١).

٦- يسلم من الضلال، وكذلك من الخوف والحزن، فقد اتقى الشرك والكبائر والصغائر، والتقوى تأمره بذلك، فيخشى الله في السر والعلن، ويُصلح أعماله الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف: من الآية٣٥).

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام:١٥٣). والسبل: (الانحرافات).

٧- يجزى بتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك من فضل الله، ويفرق بين الحق والباطل، فلا تختلط عليه الأمور فيعرف الحلال والحرام قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال:٢٩)

٨- يبارك الله له وتأتيه النتائج، فالنتائج من الأسباب غير عادية، لأن البركة توفيق إلهي، لا يفقهها الكفار والعصاة، إن هناك بركة أعلى من التخطيط والترتيب والإعداد والعمل، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦)

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٦٦)

٩- وهي سبب من أسباب النصر على الأعداء، وسبب لنزول المدد والعون من السماء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ❖ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ❖ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران:١٢٣-١٢٥).

١٠- العاقبة الخيرة

ويؤتى المتقي والمتقون العاقبةَ الخيرة، فإذا زادت التقوى تعجل النصر، فاصبر إن العاقبة للمتقين، ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف:١٢٨).

فلا تسأل: لَمَ تأخر النصر؟ وفكر بِمَ يكون النصر؟

آثار التقوى وثمراتها لا تكاد تحصى في الدنيا، فهي مع الإنسان المتقي في جميع المراحل يعرف لذة حلاوتها ويجني ثمارها.

ثمراتها في الآخرة

١- النجاة من كل أصناف العذاب، من الصراط والحساب والنار، والأمن من الخوف، قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِم لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الزمر:٦١)

٢- ويحشر وفداً مقرباً إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾ (مريم:٨٥)

٣- ورضاء الله أكبر من أي نعيم يعطى له، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: من الآية٧٢).

٤- وتتزين الجنة لهم، وتقرب إليهم، ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الشعراء:٩٠)

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾(الزمر: من الآية٢٠).

- ونعمٌ تعددها الآيات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ❖ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ❖ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ❖ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (الدخان:٥١-٥٤)

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (محمد: ١٥)

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ❖ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ (القمر:٥٤-٥٥)

٥- وتدوم صحبته مع المتقين لأن كل صحبة أو صداقة ليست على التقوى تنقلب عداوة يوم القيامة، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧)

٦- ويعطى العلو والمقام العالي على الكافرين قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (البقرة:٢١٢).

٧- الدار الآخرة

تكون الدار الآخرة كلها للمتقي بدءاً من القبر إلى العرض والحساب، إلى دخول الناس مستقرهم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:٨٣)

٨- يميز في كل موقف: إن المتقي في الدنيا وفي الآخرة يميز في تعامله مع الله عن الفاجر، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص:٢٨)

نعم الله لا تعد في الدنيا على العباد، فكيف بنعمه سبحانه على المتقين في الآخرة؟!

موجز

قضية التقوى ليست نسباً ولا مالاً ولا منصباً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣)

وقال الرسول ﷺ: «كلكم من آدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

والمتقي له ثمرات الحياة الدنيا بالرضا والاطمئنان، وله الموعظة والهدى في سبل الحياة، وله السعادة التي لا يعرفها إلا السعداء، وله اليسر في كل أموره، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ (الطلاق: من الآية٤).

قال الشاعر:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد

وقال آخر:

فاغرسْ أصول التقى ما دمت مجتهداً واعلم بأنك بعد الموت لاقيها

كما ينال المتقي من ربه كل تكرمة وفضل يوم يلقاه لا خوف عليه ولا به كدر، فقد فاز بأعلى الدرجات، وكان رضوان الله خير ما رآه.

التقوى: أن تجعل القلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها.

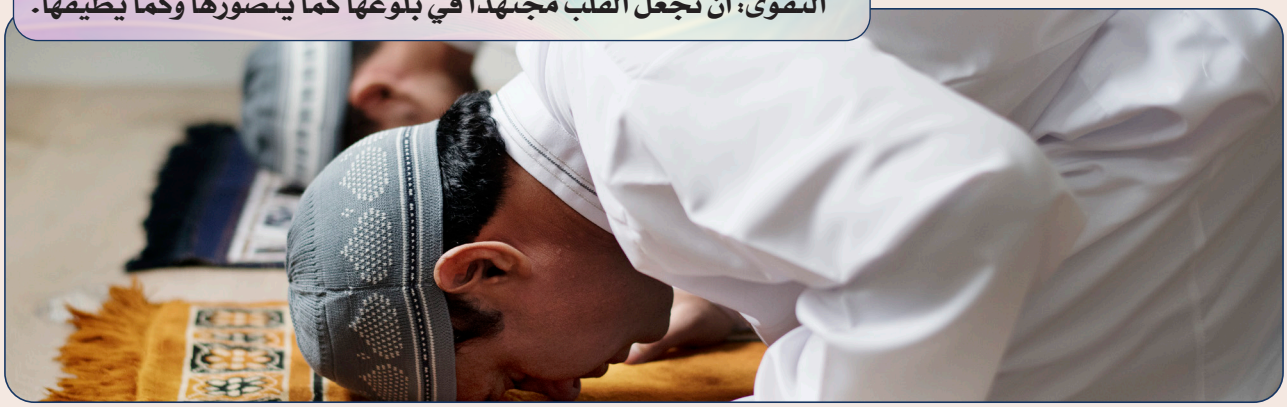

ودعاؤنا أن يجعلنا الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وإن خير الزاد التقوى، ويجعلنا من المتقين الذين يفوزون بتلك الثمرات العظيمة، وأن يجعلنا من عباد الرحمن الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ (الفرقان: من الآية٧٤)

الفصل الثامن

المعركة مع الشيطان

الحمد لله الذي خلق الخلق، نواصينا بيده، ماض فينا حكمه، عدل فينا قضاؤه، خلقنا لنعبده وهو الغني عنا، وعن عبادتنا.

من أطاعه فله الجنة والرضوان، ومن عصاه فله السخط والخسران، أرسل الرسل، وأنزل الكتب، فرق بين الطريقين: طريق الرحمن وطريق الشيطان.

علمنا العلم في رحلتنا هذه في الحياة، من المهد إلى اللحد، ودلنا على ما يصلحنا، ونهانا عما يفسدنا.

والصلاة والسلام على نبي الرحمة، والملحمة، الهادي إلى الصراط المستقيم، فأدى وبلغ ودعا لدعوة الحق ونصح الأمة.

وعلى آله وأزواجه -أمهات المؤمنين- وأصحابه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد.

إننا في معركة ليست كالمعارك المعهودة في تاريخ البشر.

هي أخطر معارك الحياة القائمة بين الإنسان وبين عدوه اللدود الشيطان.

طبيعة المعركة

ما من إنسان الا ويخوضها من حين التكليف إلى نهاية عمره، ولا عذر لأحد في التخلف عن هذه المعركة.

هي معركة المراغمة (الإذلال) فمن ينتصر؟

هل ينتصر الشيطان؟ فيدس أنف خصمه الإنسان في التراب، ويرديه في جهنم سوء المصير؟

أم ينتصر الإنسان، فيذل أنف عدوه الذي لا يراه؟ ويخزيه إذ يرسله إلى النار وحده؟

معركة الحياة الرئيسة هي المعركة مع الشيطان، ونتيجتها إما مكسبُ الفردوس أو خزيُ الحريق.

جولات هذه المعركة

قال ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ) -رحمه الله-:

(ولد في بيت علم وفضل في السابع من صفر سنة ٦٩١ هـ في قرية إزرع من قرى حوران جنوب شرق دمشق.

وانتقل إلى دمشق وأخذ عن علمائها في التفسير والحديث، والأصول، والفقه، والعربية، ولازم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

ثم ألف على غرار شيخه في الفقه وأصوله، وفي الحديث والسيرة، وفي العقائد، وفي الأخلاق، وفي العلوم المختلفة.

من أشهر كتبه:

- إعلام الموقعين عن رب العالمين.
- تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته.
- زاد المعاد من هدي خير العباد.
- مدارج السالكين.
- بدائع الفوائد
- روضة المحبين
- مفتاح دار السعادة

وغيرها من الكتب النافعة.

وأخذ عنه علماء عديدون منهم الحافظ ابن كثير صاحب التفسير الشهير، والحافظ ابن رجب الحنبلي، وابن قدامة المقدسي، وغيرهم رحمهم الله جميعاً.

وكان كثير العبادة والتهجد وشغف بالافتقار إلى الله تعالى والانكسار له، قال ابن رجب عنه: لم أشاهد مثله، ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان، وكان متقيداً بالأدلة الصحيحة، صادعاً بالحق.

توفي رحمه الله ليلة الخامس والعشرين في الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ٧٥١ هـ، وصُلي عليه بجامع دمشق، ودُفن في مقبرة الباب الصغير رحمه الله رحمة واسعة).

إنها معركة من ست جولات لا تنتهي إلا بانتهاء هذه الجولات، أو بانقضاء العمر:

١- جولة الكفر الكامل.

٢- جولة البدع والانحراف عن الدين.

٣- جولة الكبائر.

٤- جولة الصغائر.

٥- جولة الاستكثار من الحلال المباح.

٦- جولة تقديم المفضول على الأفضل.

الجولة الأولى: جولة الكفر الكامل

طلب الشيطان من رب العزة أن يؤخره إلى يوم القيامة، قال كما ذكرت الآية: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الأعراف: من الآية١٤).

﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الحجر: من الآية٣٦)، (ص: الآية ٧٩).

غاية الشيطان

أخّره سبحانه وهو الفعال لما يريد إلى اليوم الموعود، مبيناً: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر: من الآية٦).

وما كانت غايته؟ بيّنها الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر: من الآية٦).

وأقسم الشيطان أمام الله سبحانه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص: من الآية٨٢).

فإبليس يريد إذاً أن يُدخل معه أكبر عدد من البشر الذين أطاعوه إلى جهنم، فهو لا يحب أن يكون وحده في النار.

الهدف الأول للشيطان ألا يؤمن الإنسان، فيوقعه في سخط الله وعقوبته، ومن ثَمَّ يدخله النار.

سبيل الشيطان

لأجل هذا الهدف سيستعمل الشيطان كل سبيل متاح له، وسيحاول مع الإنسان بكل سبيل. ﴿لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ (الأعراف: من الآية١٧).

بنزغاته ووسوساته، نعوذ بالله من شروره وكيده.

تبرؤ بعد الإسقاط

يتبرأ الشيطان من الإنسان بعد أن يجعله يكفر بالرحمن، ويدخل النار فلا يستطيع أن ينصره ولا يعينه، ولا يساعده، وإذا استصرخ فلا ينجيه، وليس باستطاعته ذلك بالأصل، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ (الحشر: من الآية١٦)

حتى إذا كانا في النار يناديه أتباعه، فيرد عليهم كما بيّن القرآن: ﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ (إبراهيم: من الآية٢٢).

فيقول الشيطان لأصحاب النار: لا أستطيع أن أنقذكم، كما أنتم لا تنقذونني.

عدو لا ترجى صداقته، يريد خسارة الأبد لمن صدَّقه وهو كذوب، هدفه كفرُ البشر.

أنواع الكفر

صور الكفر مختلفة، تعددت السبل والصور في الحياة الدنيا ولكن النتيجة واحدة، هي الكفر بالله -نعوذ بالله من الكفر-.

١- الكفر بوجود الله (الإلحاد)

من نزعاته -لعنه الله- أن يوسوس للإنسان ليوهم له أنه: لا إله والحياة مادة.

وهذا مذهب قديم في البشر، يقول عنهم القرآن: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾(الجاثية: من الآية٢٤).

والذين ينكرون خلق الله لهذا الوجود قلة نادرة من البشر، فحتى المشركون في عهد النبي ﷺ لم يكونوا ينكرون مبدأ الخلق من الله سبحانه، قالت الآية: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف:٩)

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف: من الآية٨٧)

عدد الملحدين قليل جداً على مدار التاريخ، حتى في المذاهب الملحدة كالشيوعية مثلاً لم تجاوز نسبتهم ٨٪ من سكان الاتحاد السوفييتي أيام سطوته وجبروته.

> الإلحاد أشد كفراً من الإشراك، فالملحد لا يؤمن بالإله الخالق وينكر وجوده، بينما المشرك يؤمن بوجود الله تعالى ولكنه يتخذ معه آلهة أخرى.

نكران ظاهري

إن الذين ينكرون وجود الله إنما ينكرون ظاهراً، لأن الفطرة التي فطر الناس عليها تأبى الكفر، فهناك شعور عميق في القلب الإنساني بأن هناك خالقاً، يقول عنهم ربنا لما جاءتهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ (النمل: من الآية١٤). في معرض الذكر عن فرعون وقومه.

قصتي مع الملحد

لما كنت في الولايات المتحدة كان معي شاب من الكويت واسمه عبد العزيز، وكان يدعي أنه لا يؤمن بالله تعالى، ويعلن أنه لا يؤمن بوجود إله.

وكم ناقشته وحاورته! وكم حاولت إقناعه!، ولكن كنت كنافخٍ في قربةٍ مثقوبةَ لعناده، وتصميمه على إلحاده.

وذات يوم كنا معاً في مطعم الجامعة إذ جاءنا شاب من المبشرين النصارى وكان من الذين يسمونهم هناك (الصليبيون) Crusaders.

ومعنى هذا الاسم أن هؤلاء صنف من النصارى صليبيون، متعصبون، يؤمنون أن النصرانية ستنتصر حتماً.

جلس هذا الصليبي الشاب معنا، وحاول أن يقنعنا بالنصرانية، وظل يتكلم. ويتكلم.

فلما أنهى كلامه الكثير، وأردت أن أرد عليه.

وإذا عبد العزيز ينبري ليقول له: هل تعرف أنت شيئاً عن الإسلام؟!

قال: لا.

قال: لو عرفت شيئاً عن الإسلام ما قلت ما قلت!

كنت مندهشاً من عبد العزيز الملحد حين قام يتحدث عن الإسلام، فرأيته يتكلم عن الدين، ويبين عظمة الإسلام، ويشرح له التوحيد، ويستشهد بأدلة كثيرة على وجود الله سبحانه وتعالى.

شهوة المخالفة

فلما ذهب النصراني الصليبي؛ التفتُّ إليه.

قلت له: أنا من أشهُرٍ أثبت لك التوحيد وأنت ترفض الأدلة، وها أنت الآن تكلمت عن الإسلام، والرسول صلى الله عليه وسلم، وليس عن وجود الله فقط.

قال: أأنت جادّ بأني لا أؤمن بالله وبوجوده؟! إنه من المستحيل أن يكون إنسان ينكر وجود ذاته سبحانه!

قلت: لماذا تظهر الإلحاد إذاً؟

قال: لا تصدق من يدعي عدم وجود الخالق أبداً، وأنت قد ذكرت الآية الكريمة: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ (النمل: من الآية١٤).

قال: هناك في النفس شهوة تدعى حب المخالفة، حب الظهور بطريق المخالفة، وبتلك الشهوة يصل بعض الناس إلى الشهرة، فيظهر الإلحاد مثلاً، أو يكتب كتاباً ينال (يسب) من الرسول ﷺ، ليتحدث الناس عنه، كأنه الشيطان يحب أن يذكره البشر باللعنات.

ليست من طبيعة البشر إنكار خالقه، وإنما تدفعه شهوة الشهرة، فيظهر الإلحاد.

٢- الإشراك

اعتقاد بوجود الله سبحانه، يرافقه تأليه أو عبادة لغيره، وقد سئل المشركون العرب: لماذا تعبدون الأصنام، وأنتم تقولون: إن الله هو الذي خلق السموات والأرض والإنسان؟

فأجابوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: من الآية٣).

يظنون أن للأصنام مكانة عند الله، فجعلوها تشارك سبحانه وتعالى في مسألة الضر والنفع.

وهناك الكثير من الأمم التي أشركت، بل إن أكثر البشرية اليوم على الشرك، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف:١٠٦)

يقولون: المسيح إله وابن الإله، وروح القدس إله، وهما مع الله يشكلون الثالوث -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-.

والقرآن يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (المائدة: من الآية٧٣).

ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: من الآية٧٢)

فما الفرق بين عقيدتهم إذن وبين عقيدة الإغريق (قدماء اليونان) التي كانت تؤمن بتعدد الآلهة؟

حواري مع أستاذ نصراني

جرى حوار هادف وهادئ بيني وبين دكتور نصراني متخصص في مقارنة الأديان، سألته: هل تؤمن بنوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام؟

قال: نعم.

قلت: من هؤلاء؟!

قال: رجال صالحون عظام، جاؤوا ليعلموا الناسَ الدينَ.

قلت: إلامَ كانوا يدعون؟

قال: إلى عبادة الله.

قلت: من هو المسيح؟

قال: ابن الله -تعالى سبحانه عما يقولون-.

قلت: متى صار ابناً لله؟ ويعلم الإنسان مولد ابنه عادة.

قال: هو ولده أصلاً معه منذ الأزل! لأنه هو وابنه وروح القدس شيء واحد، ثلاثة في واحد!

قلت: إذا صار له ابناً منذ الأزل؟ قبل أن يخلق الخلق؟!

قال: طبعاً.

قلت: لـمَ لـمْ يخبـر الرسـلُ العظام السـابقون، نـوح، وإبراهيـم، وموسـى عليهـم السـلام أن لله ولـداً؟! وأنـت تـرى أن هـذه العقيـدة هـي أصل الديـن؟!

فاحتار، ولم يقل شيئاً!.

قلت: دعني أقل لك احتمالات في هذا الشأن:

١- احتمـال أنهـم -الرسـل- كانـوا يعرفـون أن لله تعالـى ابنـاً، فرفضـوا أن يخبـروا النـاس بهـذه الحقيقـة، وكذبـوا علـى النـاس.

قال: لا يمكن أن يكذب أولئك الرسل، فهم صادقون.

قلت: إذاً احتمـال أن يكـون لله تعالـى ولـد، وأخبـر بـه الرسـل السـابقين فكتمـوا هـذا العلـم، وهـذا احتمـال مرفـوض.

٢- احتمـال ثـان أن الله تعالـى لـم يخبـر أولئـك الرسـل بـأن لـه ابنـاً، فأخفـى عنهـم هـذه الحقيقـة -كمـا تعتقـد أنـت- إلـى أن زادت ذنـوب البشـر فأرسـل ابنـه مخلصـاً لهـم مـن الذنـوب.

قال: نعم، هذه عقيدتنا، إنه المخلّص.

قلت: أنا ساعدتك، ولم تقلها أنت.

قال: نعم، وظن أن الحوار قد انتهى.

فقلت له: هل هناك احتمال أن يكون لله تعالى بنت؟!

قال: لا.

قلت: كيف علمت أن الله تعالى ليس له بنت؟!

قال: لم يخبرنا عنها في الإنجيل، ولا في خبر الرسل الذين جاؤوا من قبل.

قلت: إن الله تعالى كما زعمت قبل قليل لم يخبر من هو أعظم منك نوحاً وإبراهيمَ وموسى بأن له ابناً! فهل أنت أعظم منهم وأفضل حتى يخبرك أن له بنتاً ؟!!

فسكت، ثم قال وهو لا يدري: إذاً هناك احتمال أن يكون له بنت أيضاً.

قلت: هل يمكن أن يكون له ابن آخر؟!

فنظر إلى السماء، وقال: والله يمكن أن يكون لله عدد من الأبناء والبنات!!

ثم نظر إلى ساعته، يستنقذ بالهرب من الحوار، وادّعى أنّ له موعداً آخر.

كما أشرك اليهود في كثير من عقائدهم ومنها التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التوبة: من الآية٣٠).

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: من الآية٣١).

وكذلك أشرك العرب في الجاهلية ويشرك اليوم كذلك البوذيون والهندوس والمجوس والصينيون وغيرهم.

وقد انتشرت عقيدة الشرك بين البشر انتشاراً واسعاً، حتى لم تبق مجموعة بشرية الا ودخلها الشرك.

قصتي مع الهنود الحمر

قرية للهنود الحمر في ولاية أوكلاهوما أمريكا (حيث كنت أدرس)، وكان أهلها يعبدون النار ويصلون حولها، فلما زرتهم سألت بعضهم: كيف تعبدون؟ وماذا تعبدون؟

قالوا: نعبد حين نرقص حول النار!

قلت: هل تعبدون النار؟

قالوا: لا، نعبد الذي خلق السموات والأرض.

وكان جوابهم مفاجأة لي، لأنهم يؤمنون بالله، فطرة الله التي فطر الناس عليها!

من الذي أخبر الهنود بالإله الواحد هناك؟

سألتهم: إذاً لماذا تصلون حول النار (ترقصون)؟

قالوا: لأن النار ترتفع بدخانها فترفع صلاتنا ودعاءنا إلى الله.

فانظر إلى شركهم مع إيمانهم بخالق السموات والأرض.

الإشراك: عبادة غير الله على وهم أن الشريك يرفع العبادة إلى الله، ويكون شفيعاً بقبولها، أو يضر وينفع مع الله تعالى.

انتصار الشيطان

دخل الشيطان من باب الكفر والإلحاد والشرك إلى الناس فانتصر في هذه المعركة على عدد كبير من الناس كما قال تعالى مخاطباً بني آدم: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (يّس:٦٢)

إحصاء

لو قدرنا البشرية بحوالي ستة بلايين إنسان، وقدرنا المسلمين في نحو بليون ومائتي مليون إنسان تقريباً لوجدنا أن ثمانين بالمائة ٨٠٪ كفار ومشركون.

فالشيطان انتصاره ٨٠٪

والإنسان انتصاره ٢٠٪.

وقد ذكرت الآية هذه النسبة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف:١٠٦).

طريق الخلاص

١- الاستعاذة من شر الشيطان، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت:٣٦)

٢- سؤال أهل العلم فيما يوسوس من شياطين الإنس والجن مما يتعلق في قضايا العقيدة والإيمان، قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء: من الآية٧) والاستزادة دوماً من العلم الصافي بالسؤال.

٣- التذكر على عداوة الشيطان، والتمسك بما جاء من الله تعالى القائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١).

وهناك كتاب جميل ألفه عالم بغداد أبو الفرج بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ يحذر فيه المسلم من مكايد الشيطان، ويدل على مصايده، ويكشف مستوره، ويفضح غروره، ويشرح خطط إبليس التي يلبّس بها على الإنسان، ولذلك سمى كتابه هذا (تلبيس إبليس).

لا تكتفِ بلعن الشيطان، بل استعذ من شره، وصف عقيدتك، وازدد من العلم النقي من العلماء المخلصين، وإياك والشرك بكل صوره فإنه ظلم عظيم.

٢- الجولة الثانية: بدع العقيدة

إذا لم يستطع الشيطان أن يحرف الإنسان في عقيدة التوحيد، وبقي المرء مسلماً يؤمن بالله تعالى وحده (بلا شرك) وبأركان الإيمان الأخرى، لم يتركه إبليس أبداً، وإنما جاء إليه بأشكال وألوان، فيأتيه بجولة البدع والانحراف، وقد انتشرت هذه البدع قديماً وما تزال تنتشر حديثاً.

أمثلة من انحراف في العقيدة

١- اعتقاد من ينفع غير الله

كنت في جماعة من الأصحاب في مخيم خارج المدن، وكان يحرس المخيم رجل من بلد عربي.

والمنطقة صحراء شديدة الحر، وقاسية ظروف الحياة فيها، وتنتشر فيها الأفاعي والعقارب بكثرة ترى أحياناً رأي العين.

سألت حارس المخيم: أما تخاف من هذه الحيات والعقارب؟

قال: لا.

قلت: لم لا تخاف؟

قال: أنا بحمى سيدي الرفاعي، وهو يحميني!! (يريد أحمد الرفاعي، توفي ٥٧٨هـ).

هذا المسكين

يقر هو بأن الرفاعي ليس بإله، وهو لا يعبده، لكن الشيطان أدخل عليه البدعة بموضوع الحفظ، فالرفاعي يحفظه وهو يحميه!!

لا يحمي أحد أحداً

يصرح القرآن الكريم على لسان الرسول ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً﴾ (الجن:٢١).

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ (الجن:٢٢).

فالرسول ﷺ يصرح بأنه لا يحميه أحد إلا الله، وأنه لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً! فكيف بغيره ﷺ؟!

احفظ الله يحفظك، ولا أحد سواه.

بدعة بعض النساء

يأتي الشيطان على تلك النساء حين لا يأتيهن ولد، فيوسوس لهن، وللواحدة منهن.

تقربي من القبر الفلاني!!

علقي هذه التميمة!

علقي هذا الخيط في شباك وليّ، أو على شجرة في مسجد! حتى يدفعها الشيطان لهذا المنكر دفعاً.

وكأن هذه الأعمال تقرب إلى الله، أو أنها تنفع في أن تهب الواحدة ولداً.

تعظيم بعض الصالحين

يزين الشيطان عظمة بعضهم لبعض من البشر، فيظنون أنه يضر وينفع، فيتقرب الفرد إلى ذلك الصالح في حياته، ثم يتقرب إليه بعد مماته، وقد يطلب منه الاستغاثة والنجدة، بعد أن يتمسح بقبره، أو ينذر له قرباناً إن تحقق له ما يريد، ومسألة الاستغاثة هي نوع من الشرك إذا اعتقد المستغيث بأن صاحب القبر ينفع أو يضر بذاته من دون الله تعالى..

العظمة لله عز وجل، وهو الضار النافع، ولا أحد يملك ضراً ولا نفعاً إلا بإذنه.

٢- وحدة الوجود

كلمة حق أرادوا بها باطلاً، أولئك الذين يتشدقون بكلام فلسفي كقولهم:

كل شيء مما تراه حولك لا وجود له إلا بوجود الله، فهو سبحانه في كل شيء وفي كل مكان، إذاً إن الله يتمثل في كل شيء وفي كل مكان!

حتى يقول القائل منهم: الله في كل شيء طبعاً. في الجمادات، وفي الحيوانات!

ولقد بالغ بعضهم، فأساء الأدب جداً وقال: ما الكلب والخنزير إلا إلهنا. لأنه يظن أن الله تعالى يتمثل فيهما لأن الله عز وجل عندهم في كل مكان.

حتى قال قائلهم:

- ما في الجبة غير الله. (أي ليس في ملابسي إلا الله، لأنه يعتقد بوجوده تعالى في كل مكان).

- سبحاني ما أعظم شأني. (حيث يرى أن الله عنده في كل مكان، إذاً فهو تعالى عما يقولون داخل الإنسان نفسه، ولذلك يقول: سبحاني).

وتكثر مثل هذه البدع الجاهلة في أجواء الجهل، تنشرها شياطين الجن والإنس من زخرف القول غروراً.

الوجود وجودان، وجود الحق سبحانه وتعالى، ووجود المخلوق، إلى أجل.

٣- العصمة لغير الأنبياء عليهم السلام

العصمة: هي اعتقاد أن إنساناً ما حفظه الله تعالى من إمكانية الخطأ، فهو لا ينطق إلا بالحق، ولا يفعل إلا الحق، وبالتالي فكلامه وأفعاله وكل ما يصدر عنه فهو تشريع من الله عز وجل، وهذه أمور في عقيدتنا لا تكون إلا لنبي، لأن الأنبياء مأمورون بتأدية الرسالة، ولأنهم قدوة للبشر، ولكن بالغ بعض الناس في تقديس بعض الشخصيات -من غير الرسل عليهم السلام- فأسندوا إليهم العصمة، وأن أفعالهم بعيدة عن الخطأ، حتى يؤولون الأخطاء التي تقع منهم بأنها ليست على حقيقتها، بل هكذا تراءت للناس أنها أخطاء وليست كذلك!

وهذه العقيدة فيها انحراف شديد، لأنهم بنوا على أقوال هؤلاء الأئمة المعصومون تشريعاً بينما الدين قد اكتمل (اليوم أكملت لكم دينكم)، والأصل أن نعتقد أن ما يفعله أو يقوله هؤلاء اجتهاد إن وافق القرآن والسنة قبلناه، وإلا فلا.

لا عصمة إلا لنبي، وليست لأحد غيره.

٤- الحرية والإجبار

بعض الناس وقعوا في موضوع الجبرية، اذ قالوا: ليس لنا اختيار فإنا مجبورون، ولا رأي لنا، وبالتالي فالإنسان مسيّر عندهم ليس له أي اختيار.

وبالعكس تصور بعض الناس حرية الإنسان اللامحدودة، فخرجوا عن دائرة تصرف الله سبحانه وتعالى لوجود حريتهم، وأن الله تعالى لا يستطيع (حاشاه) أن يمنع الإنسان من أي تصرف.

وكلا التصورين قد انحرف وابتدع.

لا يسأل الإنسان في ما لا تحكم له فيه، وإنما يسأل عن اختياره وإرادته، ولكن اختياره هو عطاء من الله تعالى.

٥- تفسير القرآن الكريم بلا أساس

وقع بعض الناس في الانحراف حين فسروا آيات الله سبحانه وتعالى بطريقة لا تحتملها لغة العرب، من بعض مفاسدهم قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾(البقرة: من الآية٦٧)، أي امرأة أو النفس! وكذلك قولهم في الآية: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت: من الآية٦٩)، إنما (لمع) فعلٌ وأن الله سبحانه يضيء المحسنين ويبرقهم!

لا يفسر كتاب الله إلا بعلم رواية أو معرفة، ووفق ما صحّ من اللغة العربية الأصيلة.

٦- الولاء لغير المؤمنين

من قضايا الانحراف إعطاء المودة والحب والتناصر لغير المسلمين (موالاتهم)، إذ الأصل أن يتولى المسلم الله ورسوله والذين آمنوا.

فترى المنحرف قد أغواه الشيطان، فيعطي محبته لغير المسلمين ويقدمها على المسلمين، وينصر أعداء الله على المسلمين.

وكم وكم من المسلمين من وقع في مناصرة أعداء المسلمين!! والخضوع لهم في تحقيق رغباتهم بما يضر بالمؤمنين، وهذا انحراف شديد في الإيمان.

انتصار الشيطان

لقد استطاع الشيطان في هذه الجولة أيضاً أن ينتصر على كثير من المسلمين، فاستنبط لهم بدعاً ذكرت بعضها، ومن أراد المزيد فليرجع إلى الكتب التي اهتمت بهذا الجانب، كالملل والنحل لابن حزم، والفَرق بين الفِرق للشهرستاني، وتاريخ المذاهب الإسلامية لمحمد أبي زهرة. وغيرها، ليرى كم حجم انتشار هذه البدع في تاريخ المسلمين! ولينظر إلى واقع بعض الفرق في بلاد المسلمين، أو أحوال كثير من عوام المسلمين ليرى مدى انتشار هذه البدع بين أهل الإسلام اليوم.

على المؤمن أن يصفي عقيدته من كل بدعة ويلتزم بالنبع الصافي من القرآن والسنة الصحيحة.

٣- الجولة الثالثة: جولة الكبائر

لا يمّل الشيطان من الإنسان لغوايته وإضلاله، ويسلك كل المسالك، ويقتحم كل الجولات حتى يكسب أية جولة يوقعه فيها ويخسّره، فيأتيه أحياناً من باب الكبائر.

يقول الله سبحانه وتعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْأِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾(الشورى: من الآية٣٧).

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْأِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (النجم: من الآية٣٢).

وعد الله تعالى عباده -وهو واسع المغفرة- بأن يغفر الذنوب الكبيرة إن تاب ورجع وندم فاعلها، ووعد بأن الصغائر تمحى ما اجتنبت الكبائر، كما صرح في الآية: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء: من الآية٣١).

مرتكب الكبيرة

لا خلاف عند علماء أهل السنة والجماعة أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر إلا إذا استحلها.

شارب الخمر مثلاً، هل هو كافر؟ أم غير كافر؟

جاءت بعض الفرق فأوجدت بدعة جديدة حين قالت: لا هو مؤمن ولا هو كافر، هو في منزلة بين المنزلتين، كما قالت المعتزلة.

عند أهل السنة: إن قال إن الخمر حلال! فقد كفر وإن لم يشربها، لأنه أحل محرماً معلوماً من الدين بالضرورة.

أما إذا اعتقد بأنها حرام ويشربها، فبهذا العمل قد ارتكب كبيرة، وهو غير كافر.

كلام علي ﷺ

لخص هذا الموضوع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في جملتين:

من شرب الخمر محرِّماً لها جلدناه، ومن شرب الخمر مستحلاً لها قاتلناه.

وفي هذه الجولة (جولة الكبائر) لا نتحدث عن الذي استحل الكبائر، وإنما يقع في بعضها، ويصرح بحرمتها. منها:

١- إفطار رمضان نهاراً

إن قال قائل: إن الصيام ركن من أركان الإسلام، وهو واجب على كل من يقدر ويستطيع، لكن الصيام

بالنسبة لي: أنا ضعيف، أو مشغول، ولا أتحمل الجوع، وما من عادتي الانقطاع عن المألوف. إلخ.

فهذا لا يكفر، وإنما ارتكب كبيرة الإفطار في نهار رمضان.

٢- سفور المرأة

إذا قالت المرأة السافرة -التي تركت الحجاب-: إن الحجاب جزء من الدين، ورد أمره وذكره في القرآن، وثبت في الحديث، وأن الحجاب هو لباس المرأة المؤمنة.

لكنها لا تستطيع أن تلبس الحجاب بأي عذر لها، أو هكذا تظن، فقد ارتكبت كبيرة لا تكفر بها.

٣- آكل الربا

مع أن الربا قد ورد فيه آيات تفتح الحرب وتعلنها بين آكل الربا وبين الله والرسول ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ❖ فإن لم تفعلوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (البقرة:٢٧٨-من الآية٢٧٩).

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: يقال لآكل الربا يوم القيامة: احمل سلاحك.

فيقول: لِمَ؟

فيقال له: لتقاتل الله ورسوله.

ومع ذلك كله فإن آكل الربا لا يكفر ما لم يستحل الأكل.

عجيب آكل الربا

من أجل دريهمات قليلة بالربا، يفتح الإنسان الضعيف جبهة مع الله ورسوله! فما أشد طمع الإنسان الذي لا يملأ عينيه إلا التراب!.

٤- إيذاء الوالدين أو أحدهما

لقد عد العلماء كلمة (أف) كبيرة، فما بال الذي يؤذي والديه، ويسبهما، أو يضربهما، وهذا أيضاً من الكبائر، لا يكفر مرتكبها إلا إذا استحلها.

٥- سب الصحابة أو أحدٍ منهم

يتجرأ بعض الناس على الصحابة رضي الله عنهم، فيسب أحدهم أبا بكر أو عمر أو عثمان أو علياً رضي الله عنهم. أو غيرهم.

فإن استحل الساب ذلك الشتم كفر، وإلا فهي كبيرة من الكبائر.

٦- الإصرار على الصغائر

إذا أصر مرتكب الصغيرة على الذنب تنقلب إلى كبيرة، لذلك لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

والكبائر كثيرة، أصح ما ورد فيها قول ابن عباس رضي الله عنهما: هي إلى السبعين أقرب.

وقد اعتمده الحافظ الذهبي -رحمه الله- في كتابه الكبائر.

والخلاصة

لا يكفر عندنا -أهل السنة والجماعة- مرتكب الكبيرة إلا إذا استحلها، وعلى المرتكب شيئاً منها المبادرةُ إلى التوبة والاستغفار.

الكبائر: ما ورد لعن لمرتكبها أو وعيد بعذاب شديد، أو لعنة على فاعلها، أو تهويل.
وإن استحلها المرتكب خرج من الملة.

٤- الجولة الرابعة: جولة الصغائر

يفرح المؤمن إذا خرج من الجولة السابقة -الكبائر- منتصراً حين يطمئن قائلاً: لن يحاسبني الله على كبيرة إن شاء الله.

فهل يدعه الشيطان أو يمل منه؟ وقد قال تعالى عنه مبيناً إصراره على الإيقاع بالإنسان: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ (الأعراف: من الآية١٧)

خطة الشيطان

لا يزال الشيطان يمني الإنسان بفخ إثر فخ ليوقعه في الضلالة، ولكن شعور المسلم بأنه عدو له يثير في نفسه -على الأقل- الحذر من الفخ الذي ينصبه العدو، فقد يأتيه الشيطان أحياناً بفخ جولة الصغائر.

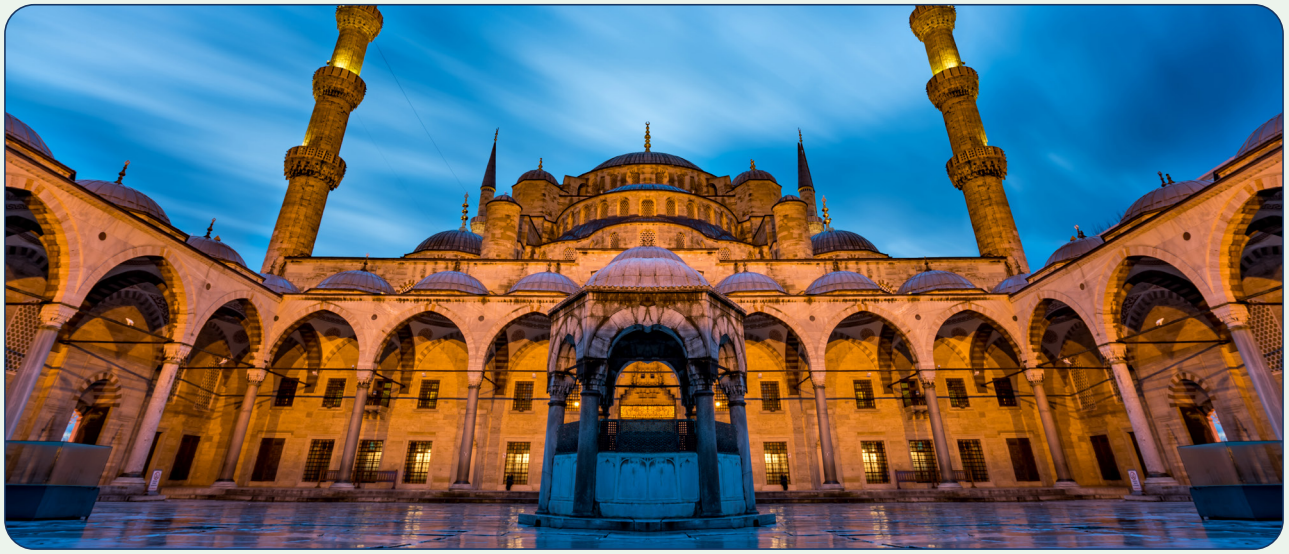

طبيعة ابن آدم

إن الإنسان بطبيعته يخطئ، ويقع في المعصية، تزلّ منه نظرة إلى محرم، ويزلّ منه سمع إلى حرام، وتخطئ قدمه فيمشي إلى مكان منحرف.

فيقع منه حرام، ومن ادعى أنه لا يعصي أبداً فادعاؤه باطل، قال عليه الصلاة والسلام: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون». (الترمذي).

الخطأ طبيعة البشر لضعفهم، وقوة عدوهم ظاهرياً، مع أن كيد الشيطان كان ضعيفاً.

العصاة نوعان

هناك من يتوب دائماً، ولو تكرر منه العصيان، لأنه يعلم أن له رباً يقبله، وهناك من يقع في الذنوب فتتراكم عليه.

وسوسة الشيطان

في هذه الجولة يحاول الشيطان أن يدفع الإنسان ليستكثر من الصغائر، صغيرة بعد صغيرة، فتكون خطوة إلى الكبائر.

فمن اعتاد النظر الحرام، سهل سقوطه في كبيرة الفحش.

ومن اعتاد السماع، سهل عليه ارتياد الملاهي والرقص.

ومن استسهل التدخين، سهل عليه الإدمان على المخدرات.

العلاج

اجعل لنفسك عزيمة بالوقاية، فقد قيل: درهم وقاية خير من قنطار علاج، وأغلق على نفسك مداخل الشيطان، ولا تتبعه ولو خطوة وإن كانت صغيرة، أو قصيرة، ولا تقترب من الحِمى.

تخيل أن ملكاً حمى بستاناً، فأكثر الناس يبتعدون عنه، ويحترزون من الاقتراب بأغنامهم ودوابهم منه، إلا راعياً فإنه يقترب بحجة أنه يراقب غنماته، فلا بد أن تقع غنمة في الحمى، ولو على حرص الراعي، فيعاقب صاحبها!

وإلى هذا المعنى أشار الحديث الشريف: إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.(البخاري ومسلم).

اجتنبوه

قوله: اجتنبوه: يعني: أبعدوه، واجعلوه ناحية، وهو أقوى التحريم وأوكده، فلو أعطيتْ لرجل كأس، وقيل له: لا تشرب منها، فقربها الرجل إلى فمه، ولم يشرب لم يقع في المخالفة.

أما إذا قيل له: اجتنب هذه الكأس، فلو اقترب منها وقع في المعصية، ولو قرّبها من فمه وقع في المخالفة.

فالجالس على مائدة فيها خمر مرتكب حراماً كشاربها، وكاتب الربا وشاهده مثل آكله.

التساهل في الاجتناب

إن الابتعاد عن الصغائر هو قطع للاستدراج في الكبائر، وإن الله ورسوله يحذرنا من الاقتراب لبعض المحرمات، كقوله تعالى: (فاجتنبوه) عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

وقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج: من الآية ٣٠).

وقد أثبتت التجارب أن من يتساهل في موضوع الاجتناب والاقتراب من المحرمات يقع في المحظور غالباً.

التساهل

لما كنا في أمريكة كان معنا شاب، لم يدع الصلاة قط -أول وصوله- وكان يؤذن لكل وقت فينا، ويوقظنا لصلاة الفجر، وإذا -لا نقول فجأة- به يتردى في الخمر والزنى! فكيف؟

استدرجه الشيطان ببعض أصحابه! وبعض أقاربه! فحضر معهم إلى مجالس فيها نساء، وفيها خمر، وشيئاً فشيئاً وقع في المحظورات -والعياذ بالله-

فلا تتساهل

١- فبادر إلى حسنة تعملها بعد صغيرة، لعل الله سبحانه يكفر عنك لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾(هود: من الآية ١١٤).

٢- ولا تستسلم إلى الصغائر، واختر الصحبة الصالحة في كل ظروف حياتك.

٣- ولا تبتعد عن المسجد ولو كنت صاحب ذنب، فإن المشي إليه يكفّر السيئات ويدفع للتوبة عن الكبائر.

٤- واقرأ القرآن الكريم، واجعل له وقتاً من يومك.

الصغائر بداية انحدار نحو الكبائر، والخطوة الأولى هي المنزلق إلى الهاوية، فكن على حذر.

٥- الجولة الخامسة: جولة الاستكثار من المتاع

وهو الاستكثار من الحلال، والغاية منه لجمع المباح جمعاً فقط، يدفع المرء في ذلك إلى جولة جديدة في مواجهة الخبيث (الشيطان).

كأن يقول للمرء: لا بأس فاشتر سيارة فخمة، من آخر طراز، بدلاً من أن تعطي للفقير شيئاً، أو أن تصل رحمك بمال.

ويعدد له هذه المداخل:

١- اصرف مالك في الحلال، فاهتم بالعطور، واهتم بالملابس، وليكن من أغلى الأمتعة، وانظر إلى أقرانك، وجارِهم، بل فُقهم في المأكل والمشرب والملبس والمسكن!.

٢- روّح عن نفسك فادخل المطاعم الفخمة، والفنادق ذوات النجوم المتعددة، وتمتع بالنعم التي ليست من الحرام في شيء.

٣- سافر إلى البلاد بقصد السياحة والتمتع، واختر أجمل البلدان وأغلاها.

٤- وغير ذلك من أنواع المباح في دنيا الحلال.

النتيجة

يصرف الإنسان عند ذلك همه إلى اقتناء ما يريد، وهل يأتي هذا مجاناً؟ لا بد من وقت ومال وجهد، فيكون همه وغايته تلك الأمور بدلاً من أن يكون همه أمر الدين والدعوة إليه.

وعوضاً عن أن ينهض بأمته وتنميتها.

فينتقل عن النواحي الاجتماعية والأسرية، ونحو ذلك مما تحتاجه أمتنا ومجتمعنا في الوقت الراهن إلى الاستكثار من المتاع.

رأي

فأنا لا أحرم زينة الله التي أوجدها لعباده، لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: من الآية٣٢).

فتحريم شيء أو تحليله لا يكون إلا بشرع من الله.

وأن هذه الزينة إن شغلته عن الله والعمل للإسلام فالزهد فيها أفضل، وإن لم تشغله عن الأعمال الصالحة وكان شاكراً لله فيها فلا بأس.

ولكن السلبية من الفرد المسلم غير مقبولة، إذ لا يقوم بأداء دوره في هذا الدين وبين المجتمع، ثم ماذا

يفيده الأثاث والسيارة والعمارة إن كان الدين في خطر، والعدو يتربص به للإيقاع به وبأهله وبأمته؟

يقول الرسول ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما يعلمه: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». (البخاري والترمذي).

أي لا تربط نفسك بالدنيا وخيراتها، قال أحدهم:

دنياك سوقٌ فرصة سُنحتْ لا تنس منها أنك الضيف

فماذا يحمل الضيف أو المسافر عندما يرحل؟

يروى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء، فقال: «ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها». (الترمذي).

المعركة مع الشيطان جدية، حتى مع الشهوات المباحة باقتناء الزائد والغالي، وإهمال الاهتمام بأمر المسلمين والإسلام.

نموذج يُحتذى

اشترى مولى عمر بن عبد العزيز -زمن خلافته- له ثوباً بثمانية دراهم، فلما لبسه عمر قال: ما أنعم هذا الثوب!

بكى الخادم، فقال عمر -رحمه الله-: ما يبكيك؟

قال المولى: كنت أخدمك قبل الخلافة، وأذكر أني اشتريت لك ثوباً بثمانية آلاف درهم، فلما لبسته قلت: ما أخشنَ هذا الثوب!

فقال كلمة وهو يستطيع أن ينفذ ما يريد يعلّم بها شباب المسلمين وشاباتهم الذين يشتغلون بالدنيا، وينسون أن يعملوا شيئاً من أجل دينهم ومجتمعهم:

ما أظن أحداً يلبس ثوباً بثمانية آلاف درهم ويخشى الله تعالى!.

ولقد قيل إن الزهد إنما يكون في الحلال، فيكون من الزاهدين من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام رضي الله عنهم، مع مال كثير، ومن العلماء كالليث بن سعد، وأبي حنيفة رحمهما الله، من أئمة الزهاد.

نموذج معاكس

أذكر أحد التجار عندنا في الكويت كان يبيع (الغتر) وهو غطاء الرأس، ثمن الغترة الواحدة ألف دينار كويتي، أي ما يعادل ثلاثة آلاف دولار أمريكي! أما قد يكتفي بغطاء الرأس بأقل من ذلك كثيراً من يزهد.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال (البخاري)، وذلك بإتلافه على نفسه، أو على الناس بشكل إسراف مقيت أو اختيال بغيض مباهاة للآخرين بالمظاهر الفارغة.

اكتفِ بما يسد حاجتك، وازهد في الدنيا.

٦- الجولة السادسة: جولة تقديم المفضول على الأفضل

عجيب! عجيب أمر هذا العدو الماكر، ونحن ألا ندري وسوسته؟ وكيف تتم؟

ولكننا نعلم أنه إغواء يقع في صورة من الصور التي سبق ذكرها، وفي جولة من الجولات السابقة، وأنه على إصرار لملاحقة الإنسان والإيقاع به.

وإن المنقذ من هذا العدو هو الإيمان والذكر، فلا يكون له سلطان على المؤمن الذاكر، وما يكون لكيده الضعيف عليه من تأثير، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر: من الآية ٤٢).

إن المسلم وقد نجا من الكفر والشرك والبدع والكبائر، ولم يستسلم للصغائر، ولم يستكثر من الدنيا، ولم ينشغل بها، فماذا يقول عنه الشيطان؟

إن هذا المسلم سيدخل الجنة، وقد سلك طريقه إليها، وبما أنه أرغمني على الهزيمة، لكنني سأضع أمامه عقبة، وسأخوض معه جولة أخرى، هي: أفتّر عزمه! وليرضى بدرجة دونَ الفردوس الأعلى!

كيف يوسوس؟

يعلم الشيطان أن أجر الطاعات قسمان:

١- طاعات لها أجر عظيم.

٢- طاعات لها أجر أقل.

لذلك يسعى ليجعل الإنسان أن يقتنع بالقليل من الأجر، ويشغل نفسه بالأعمال والطاعات التي أجرها أقل من غيرها.

ويسمي هذه الجولة الإمام ابن قيم الجوزية: تقديم المفضول على الأفضل!

أمثلة من هذه الجولة

١- تمتلئ المساجد لقيام الليل في شهر رمضان، فيرجع أحدهم من قيام الليل قبل ساعة من الفجر إلى داره، فينام عن صلاة الفجر.

أيهما أفضل قيام الليل؟ أم صلاة الفجر؟

٢- فقه الأولويات

حلقة العلم أفضل من صلاة النافلة، وأعظم من السنة المؤكدة، يروى أن عبد الله بن وهب أحد تلامذة

الإمام مالك بن أنس -رحمه الله- ترك الحلقة -حلقة الدرس- وذهب ليصلي غير الفرض، فلما رجع إلى الحلقة قال له الإمام مالك: يا ابن وهب، ماذا صنعت؟

قال: تذكرت أني لم أصل السنة البعدية، فقمت، وصليت، ثم رجعت.

قال: ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه. أي ليس ما صليت بأعظم من مجلس علم.

وقت صلاة الفرض في حينها أولى من أي شيء آخر.

٣- الجهاد أفضل من العبادة، وأفضل من العمرة، يبين ذلك ما قاله الإمام الجليل عالم أهل المشرق وأهل المغرب، عبد الله بن المبارك، وقد أرسل إلى صديقه الفضيل بن عياض، وكان يتعبد في الحرمين (المكي والمدني)، ويتخلف عن المرابطة على الثغور، أرسل إليه أبياتاً يقول فيها:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لرأيت أنك في العبادة تلعبُ

من كان يُخضب جيدَه بدموعه ... فنحورُنا بدمائنا تتخضب

أو كان يُتعب خيلَه في باطل ... فخيولنا يومَ الكريهة تتعب

ريحُ العبير لكمْ ونحن عبيرُنا ... رَهْجُ السنابك والغبار الأطيب

الرهج: (عطر)، السنابك: (الحوافر)

ولقد أتانا عن مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب

يشير إلى حديث النبي ﷺ: لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنم في جوف عبد أبداً. (الترمذي والنسائي).

لا يجمعنَّ غبارُ خيل لاهث ... أنفَ امرئ ودخانُ نار تلهب

هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

ترتيب الأفضل

١- الصلاة والجهاد

انظر إلى هذه المعاني في ترتيب الأولويات.

الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة.

والصلاة في المسجد النبوي بألف صلاة.

لكن هذا الأجر لا يقارن إن نادى منادي الجهاد.

قال الشاعر:

والنفس راغبة إذا رغّبتها وإذا تُرد إلى قليل تقنع

٢- الاعتكاف وقضاء الحاجة

السعي لما فيه حاجة للمسلمين وهو أعظم أجراً من العمل المشغول للنفس فقط، مثاله ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما:

أنه كان معتكفاً في مسجد رسول الله ﷺ، فأتاه رجل، فسلّم عليه، ثم جلس، فقال له ابن عباس: يا فلان أراك مكتئباً حزيناً.

قال: نعم، يا ابن عم رسول الله، لفلان عليّ حقٌّ، وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه.

قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيك؟!

فقال: إن أحببت!

قال: فانتعل ابن عباس رضي الله عنهما، ثم خرج من المسجد، فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه؟!

قال: لا، ولكني سمعت صاحب هذا القبر ﷺ والعهد به قريب -فدمعت عيناه- وهو يقول: من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها (قضاها) كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين (المغرب والمشرق).

(الطبراني والبيهقي والحاكم، وقال: هو صحيح الإسناد).

لكلٍ أولويته

والمهم أن ينظر في أحواله وأعماله، ويعلم الأمور التي يستطيع أن يكسب فيها أجراً أكبر مما هو عليه.

أو أن يستشير العلماء في أموره ليدلوه على الأجر الكبير لأحواله.

سنن من الرسول ﷺ

١- مثال ذلك: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أي الأعمال أفضل؟ قال: طول القيام. (أبو داود) أي: في الليل.

٢- سأل رجل رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟

قال: «الصلاة لميقاتها».

قال: ثم أي؟

قال: «بر الوالدين».

قال: ثم أي؟

قال: «الجهاد في سبيل الله». (البخاري ومسلم والترمذي والنسائي).

٣- سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟

قال: «إيمان لا شك فيه، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة». (النسائي).

وأمثال هذا كثير في الأحاديث وما ورد عن السلف الصالح.

لا تقنع بأجر قليل، بل اصرف عزيمتك إلى المعالي، وسل الله الفردوس الأعلى، وذلك بمعرفة نفسك وأحوالها وأعمالك.

خاتمة

وأخيراً. فإن هذه الفصول تذكرة للمتنافسين في ساحة السباق إلى الدرجات العلا من الناس، وهي من الدرجات المكتسبة في الحياة الدنيا إلى الآخرة.

ولعلنا في هذا الكتاب قد وفقنا المولى سبحانه في تلخيص هذه الصفات، داعين إلى الممارسة والاكتساب لمن يريد أن يتقدم نحو الأفضل.

ونوصيك أيها الأخ القارئ بالاستعانة بالله تعالى، وبسؤاله التوفيق، واعلم أن كل نفس تبذله في هذا الطريق أو أي أثر في نفس الآخرين له أجر وثواب من الله تعالى.

وندعو لك بالتوفيق.

ولا تنسنا من دعائك، والله يوفقك.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم	
٢- إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزالي
٣- تلبيس إبليس	أبو الفرج ابن الجوزي
٤- جامع الأصول في أحاديث الرسول	ابن الأثير الجزري
٥- الجامع لأحكام القرآن	أبو عبد الله القرطبي
٦- حياة الصحابة	محمد يوسف الكاندهلوي
٧- رسائل ابن قيم الجوزية ١. المحبة والمحبوب ٢. التوبة والرجوع ٣. المراقبة واليقين ٤. الزهد والورع ٥. التوكل والقلب	ابن قيم الجوزية
٨- سير أعلام النبلاء	الحافظ الذهبي
٩- شرح العقيدة الطحاوية	
١٠- فتح الباري	
١١- الفوائد	ابن قيم الجوزية
١٢- القاموس المحيط	مجد الدين الفيروز أبادي
١٣- الكبائر	الحافظ الذهبي
١٤- مسند الإمام أحمد	أحمد بن حنبل
١٥- وحي القلم	مصطفى صادق الرافعي